دكتور

عبد الفتاح عاشور

مدرس التفسير وعلوم القرآن
بجامعة الأزهر ، والجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

الحج فى القرآن الكريم

دراسة موضوعية لآيات الحج فى القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٩٧٨

مطبعة الحضارة العربية - الفجالة
ت ٩٢٠٤١١٧



محتويات الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــــــديم

أحمد الله حمد المخلصين الصادقين ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين. وبعــــد :

فالقرآن بحر زاخر يموج بالمعارف الربانية ، ويفيض بالأسرار الإلهية ، غاص العلماء في أعماقه فاستخرجوا الكثير من درره وكنوزه ، وبقي هذا البحر فياضاً بالخيرات ، عامراً بالنفحات والبركات .

ولقد حاولت أن أغوص فى أعماق هذا البحر وأن استخرج بعض دوره وكنوزه ، فوقع اختياري على الآيات التى تحدثت عن فريضة جمعت الكثير من حقائق الإسلام ومبادئه وأركانه ، وتلكم هى فريضة الحج .

ولقد كتب علماؤنا الأجلاء فى تلك الفريضة ، كما كتبوا فى غيرها بحوثاً نافعة ، ولم يتركوا مسألة تخطر على بال إلا وعرضوها على كتاب الله وسنة رسوله ، وفصلوا فيها القول تفصيلا ، فجزاهم الله على الإسلام والمسلمين خير الجزاء .. تقرأ فى ذلك مثلا : للشيخ محمد ناصر الألبانى : حجة النبي ﷺ ، ولابن حزم : حجة الوداع ، وللشيخ محمد زكريا الكاندهلوى : حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ ، وللشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جاسر : مفيد الأنام وتور الظلام فى تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام « فى جزءين » وللشيخ سيد سابق : الحج ومناسكه هذا عدا الأبواب الثابتة فى دراسات الفقهاء وكتب الفقه الإسلامى ، يضاف إلي ذلك ما تخرجه المجلات الإسلامية فى أنحاء الوطن الإسلامى بمناسبة موسم الحج من ملاحق ومقالات وبحوث تشرح ما فى هذه الفريضة من أحكام وآداب ، مما هو جدير بالثناء والإعجاب ..

فماذا بقي لنا بعد هؤلاء وأولئك من القول ؟؟

نعم ، بقي لنا الشيء الكثير ، بقي لنا القرآن الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، لذا نظرت فى الايات التي تحدثت عن البيت الذى نحج إليه ، والآيات التى تحدثت عن ابراهيم الذى رفع قواعد هـذا البيت ، والآيات التي حدثتنا عن الحج وما فيه من الأحكام فوجدتها مليئة بالأسرار ، مشرقة الأنوار ، فقلت لم لا أحاول أن أستلهم بعض هذه الأسرار وأن أقتبس بعض هذه الأنوار .

وكان شهودى موسم الحج مرتين أعظم فرصة لاستلهام هـذه الأسرار ، واجتلاء تلك الأنوار فأمسكت القلم واستعنت بالله . وكتبت ما فتح الله به فى تلك الآيات مسترشداً فى ذلك بما كتبه علماؤنا الأجلاء فى التفسير والحديث والفقه واللغة وغير ذلك ، لكن مع ملاحظة أني عمدت إلى دراسة الآيات من حيث هى هداية وإرشاد ، ومن حيث ما توحي به من توجيهات وأحكام لم ألتزم فى ذلك تقسيمات الفقهاء وتفريعاتهم للحج وما فيه من واجبات وأركان وسنن إنما أتعرض لذلك من خلال الآيات معترفاً بأنني قد استفدت كثيراً من بحوثهم وعلمهم ومقرراً أن لهؤلاء الفقهاء قصب السبق والإجادة والإفادة . .

وقد بقي ما كتبت مسطوراً يحتاج إلى تنسيق وترتيب إلى أن أذن الله لى بأن أسعد بالجوار الطيب المبارك حيث أعمل أستاذاً مساعداً للتفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .. فكان للمدينة وذكرياتها والمسجد النبوى وإيحاءاته والجوار العظيم لأسعد خلق الله محمد ﷺ الأثر المحمود فى إضافة الجديد من الأفكار لما كتبت أولا .

والآيات التي ندرسها مقسمة إلى أربعة أبواب :

الأول : فى بناء البيت الحرام وما فيه من الهدايه والبركات وفيه أربعة فصول .

الثانى : ابراهيم عليه السلام — وقصة بناء البيت ، وفيه أربعة فصول .

الثالث : البيت ودعوة التوحيد ، وفيه ستة فصول .

الرابع : أحكام ومعايير ، وفيه ثلاثة فصول .

أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يشرح صدورنا وينير قلوبنا وعقولنا وبصائرنا بنور هذا القرآن العظيم ...

عبد الفتاح عاشور

المسجد النبوى الشريف

الجمعة ٣ ربيع الأول ١٣٩٨ هـ

١٠ فبراير ١٩٧٨ م

الباب الأول

البيت الحرام : بناؤه .. وما فيه من الهداية والبركات وإيجاب الحج اليه

الفصل الأول : أول بيت وضع للناس .

الفصل الثانى : ما فيه من الهداية والبركات .

الفصل الثالث : ما فيه من الآيات البينات .

الفصل الرابع : إيجاب الحج إليه .

الفصل الأول

أول بيت وضع للناس

قال تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ..

هذه شهادة من قبل الحق سبحانه ، فهو الذى خلق الخلق ويعلم ماذا صنع لهم ، وكل قول يناقض قول الله محض خيال ووهم ليس لصاحبه عليه من دليل .

وقد ادعت اليهود أن أول بيت وضع للناس هو بيت المقدس ، وأنه قبلة الأنبياء جميعاً ، وأن محمداً — عليه السلام — حين يترك التوجه إلى بيت المقدس يكون قد خالف الأنبياء قبله . واليهود على عادتهم من الجدل واللجاج فى الحق لم يكتفوا بما ساق الله من آيات فى سورة البقرة (١) إنما استمرت محاولاتهم بغية تضليل الجماعة المؤمنة فنزل الوحى يرد عليهم قولهم ويثبت أن أول بيت وضع للناس فى الأرض هو الكعبة المشرفة — زادها الله تشريفاً وتعظيما .

والأحاديث الصحيحة تذكر ذلك . فقد روي البخارى ومسلم عن أبى ذر رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة .

وهذا على أن الذى بناه هم الملائكة ، فهم قد بنوا بيت الله الحرام بمكة ، وبيت المقدس بفلسطين بعده ، وقيل الذي بناه آدم ، وقيل إبراهيم عليه السلام

(١) وذلك قوله تعالى : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .. وما بعدها من الآيات .

ويمكن أن يقال : إن الملائكة أول من بناه ثم جدده آدم ، ثم رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

والناس الذين وضع لهم البيت أولا : هم آدم وحواء . . وهل كان على الأرض غيرهما ؟ ثم لأبنائهما من بعدهما . . وإذن فبيت الله الحرام هو بيت الإنسانية من لدن آدم إلى قيام الساعة ، وعلى الإنسانية أن تؤوب لخالقها ورازقها لتستحق دخول هذا البيت وإلا طردت منه وحرمت من شرف المثول بين يدي ربها فى هذا المكان الطاهر .

وقد جعل الله مكة مكاناً لهذا البيت وسماها القرآن « بكة » وفى ذلك يقول العلماء : إن بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ، وقيل سميت (بكة) لإزدحام الناس فى الطواف ، يقال : بك القوم بمعنى ازدحموا ، وعن عبدالله بن الزبير قال : سميت بكة لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجا.

وأما تسميتها (مكة) فلأنها تمك من ظلم فيها أى تهلكه ، مأخوذ من مككت العظم إذا أخرجت مافيه ومك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا امتصه .

من هـــذا ندرك لم اختار الله مكة لتكون مستقراً لبيته وسماها (بكة) وهذا ما يشير إلى حفظ الله لبيته وحمايته له ، وما صنع الله فى أصحاب الفيل خير دليل على ذلك ولنقرأ فى هذا قول الله تعالى : «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيراً ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

وإذا أردنا زيادة بيان لما أودع الله بيته الكريم من التعظيم ، فهيا معا نتدبر قول الله تعالى : « إن اول بيت وضع للناس للذى ببكة » . .

إنه سبحانه — وهو يرد على اليهود إدعاءاتهم الباطلة فيما أحل وحرم من الأطعمة — يختم ذلك بقوله : (قل صدق الله) ثم يأمرهم باتباع ابراهيم عليه السلام هذا الذى أخلص لله وجهه وما عرف الشرك أبداً فيقول : فاتبعوا ملة

إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ويرد على هجومهم على المسلمين ورسول الإنسانية محمد ﷺ فى شأن تحويل القبلة بأن البيت الذى توجه إليه رسول الله والمسلمون هو أول بيت للبشرية فى الأرض .

وحين يستعمل القرآن كلمة (بيت) إنما يشير إلى ما يقتضيه البيت من الإيواء والراحة والسكينة ، وحين يأتى به هكذا : (بيت) إنما يبين ماله من عظيم المنزلة ورفعة الشأن . وفى ذكر كلمة (أول) ما يضفى على هذا البيت مهابة وتعظيما ، وفى اختيار كلمة : (وضع) دون : بنى ، او (أقيم) ، أو شيد ما يشير إلى أن هذا البيت له مكانة خاصة وانه فى بنائه كان على غير المعهود ، ومما يستأنس به فى هذا المقام ما أخرجه ابن جرير الطبري وابن المنذر والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة . الخ الحديث .

والقرآن حين يذكر كلمة (للناس) مباشرة بعد كلمة (وضع) إنما يعمد إلى الغرض المقصود من إيجاد هذا البيت بتلك الطريقة الربانية تكريماً للانسان واعلاء لقدره وربطاً له بخالقه .

ولننظر إلى قول الله تعالى : (وضع للناس) لنعلم أن الإنسان هذا الذى بنى الله له بيتاً لايجوز له أبداً أن يعادى الله وأن يرفض تعاليمه وأن يحارب وحيه وإلا فقد خسر خسراناً مبيناً . .

ولنقف عند قوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) لنرى كيف أكد هذا المعنى كل التأكيد ، وذلك ما تلمحه من بداية الآية (بان) ومن اللام فى قوله للذى ببكة ، ومن إسمية الجملة الدالة على الثبوت والدوام . وذلك ما يبين لنا عظمة هذا البيت وعلو شأنه ورفيع منزلته عند الله .

الفصل الثانى

ما فيه من الهداية والبركات

قال تعالى : مباركا وهدى للعالمين ..

إذا كنا قد عرفنا كيف عظم الله بيته . وكيف كرم الإنسان فلم يتركه ضائعاً تائهاً ، إنما وضع له بيتاً عظيما فكان هذا أول بيت وضع للناس ، فمن حق هذا البيت علينا ــ ونحن نتحدث عن الحج فى القرآن الكريم . أن نواصل الحديث عنه مهتدين بنور الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . . فماذا نرى ؟ ؟ نرى أن الله يذكر أمراً ملازماً لا ينفك عن هذا البيت فيقول : مباركا وهدى للعالمين .. والبركة كثيرة الخير وشموله ، والمبارك هو الذى وضعت فيه البركة ، وغمرته النفحات ، وأحاطت به الخيرات ، وإذا كان هذا هو شأن بيت الله فهذا أيضاً شأن كتاب الله قال تعالى : كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب . .(1) وهذا أيضاً شأن الليلة التى نزل فيها كتاب الله قال تعالى : (إنا انزلناه فى ليلة مباركة . .)(2)

فما معنى هذه البركة ؟ هل هى كلمة هائمة لا مدلول لها ؟ هل تعنى العجز والضعف كما حرفها المنحرفون عن هداية الله ؟ أبداً ليس هذا هو معناها وليس هذا ما تعنيه ، إنما البركة هى النماء والزيادة والخير العميم ، إنها مطلب عال وغال لأنها هى الحياة فى وجهها المشرق المضيء ، والحياة إذا خلت من البركة اصبحت سجناً رهيباً لا يطاق ، هذه دول الأرض فى الشرق والغرب فتحت لها كنوز الأرض ووصلت إلى الأقمار ، ولكن أين البركة فى ذلك كله ؟ إنها محطمة الفؤاد ، ضالة الطريق ، مكدودة ، مكروبة ، لا هثة ، لا تشعر بالأمان ،

---

(1) سورة ص ٣٨ / ٢٩

(2) سورة الدخان ٤٤ / ٣

ولا تحس بالراحة ، ولا تذوق السعادة ، لـكن أهل الإيمان المتوجهين لهذا البيت تحوطهم البركات ، وقد تضيق ذات ايديهم يوماً ما ، وقد ينتصر عليهم عدوهم في معركة أو معارك ، ولكنهم كلما عادوا إلى بيت الله والتمسوا فيه البركات، والتصقوا بدينهم وكتابهم وجعلوا ولاءهم لخالقهم، واعتزوا بشريعتهم وماتحمله من معالم الخير للبشر حطت بديارهم البركات وسادوا في العالمين تحقيقاً لوعد الله القائل :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبـدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً)(١) .

وكما قال سبحانه :(ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ..)(٢)

فبيت الله — وضعه الله حين وضعه — محفوفاً بالبركات ،عامراً بالخيرات. ووضعه . هدى للعالمين . . ولنتمهل عند قوله تعالى : وهدى للعالمين ، فان الهداية . هى الدلالة الموصلة إلي طريق الحق . . والشياطين : شياطين الإنس والجن تقف دائماً للانسانية بالمرصاد لتزحزحها عن طريق الحق ، وبيت الله هدى . أى هداية عظيمة مطلقة لا تدانيها هداية،ومعنى ذلك أنه مصدر إشعاع ربانى لاللجزيرة العربية ولا لعدة بلاد حولها ، ولكن كما قال الله : (وهدى للعالمين) فمن حق العالمين أن يروا نور الله لتتبصر الإنسانية طريقها وتكشف الشياطين فى أنحاء الأرض ، والشياطين دائماً تهرب أمام جحافل النور .

ولى معك أيها المسلم كلمة عتاب : بيت الله الذى تتشرف بالطواف حوله ، وتسكب العبرات عند ملتزمه ، وتلصق الصدر والخد بجدرانه ، وتقف أمامه متجهاً لربك فى خضوع وخشوع .

---

(١) سورة النور ٢٤ / ٥٥

(٢) سورة الأعراف ٧ / ٩٦

أما تذكرت إخـوة لك فى الإنسانية لم يعرفوا أين الحق ، ولم يسمعوا عن دين الله ؟ أما علمت ـ وأنت تقرأ فى صفة هـذا البيت . مباركا وهـدى للعالمين ـ أنك مكلف بالجهاد لتصبح هذه الهداية الربانية المتمثلة فى وحى الله وسنة رسوله عليه السلام حياة لبنى الإنسان ؟ قل لى بربك . لماذا توقف جهادك ولماذا ألقيت السلاح من يدك ؟ ولماذا ضننت بالدم والمال والولد على ربك . كيف تعرف شعوب الدنيا معانى كتاب الله وأنت تغط فى سبات عميق . وإذا استيقظت استيقظت على شهوات النفس وجمع المال والإستمتاع بالملذات . الأمر إذن يحتاج إلى البذل والعطاء . . وإذا حفت بك البركات وغمرتك النفحات فتجرد من ضعفك وعجزك واستعن بالله ولا تعجز وشد أزر إخوانك المؤمنين وهيا معاً نتكاتف من أجل تحقيق ما قال الله : (وهدى للعالمين) .

وقد مرت القرون . وفيها ضحى المجاهدون حتى أوصلوا نور الهداية الإلهية لكل مكان عرفوه ومابخلوا بشيء على ربهم . (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه . والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم . .)(١)

أما أنت فقد أصابك الخمول واجتاحتك الشياطين . واستولت عليك المطامع . وألقيت السلاح من يدك . فتقلص سلطانك واقتطعت منك بلادك وضاعت منك أرضك التى أعلى فيها آباؤك نور الله . واستطاع المجرمون فى الأندلس وفلسطين وبخارى وغيرها أن يستأصلوا الإسـلام من جذوره . واستطاعوا فى بلاد المسلمين أن يزيلوا شريعة الله لتحل محلها شريعة الهوى وسلطان القهر وجبروت الفوضى والهمجية . وحسب هؤلاء المجرمون أنهم سيفلتون من يد الإله القادر . (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . .)(٢)

---

(١) سورة محمد ٤٧ / ٣٨ (٢) سوره الأنفال ٨ / ٥٩

لكن بقى أنت أيها المسلم .. أنت أيها الإنسان الذي اهتدي بهدي الله . عليك أن تجعل هذا الهدي . وهذا الإسلام الذي اتى به الأنبياء . وجاء له مؤكداً ومتمماً خاتم الأنبياء محمد ﷺ سبيلا للبشر . فهذا حق الله عليك . وهذاواجبالأخوة فى الإنسانية . . وإلا فالحساب عسير والخسارة فادحة . . خسارة فى الدنيا بالهوان والمذلة والضياع والدمار . وخسارة في الآخرة حين تقف أمام الله بتفريطك وبخلك وتخاذلك ـ لاجعلنا الله كذلك وجعلنا من الراجين للفضل الفائزين بالرضا (ولو شاء الله لا نتصر منهم . ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل اعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ..)[1]

---

(١) سورة محمد ٤٧ / ٤ ـ ٨

الفصــل الثـالث

ما فيه من الهداية والبركات

قال تعالى : « فيه آيات بينات : مقام إبراهيم .. ومن دخله كان آمنا » .

إذا كان الله قد بين لنا أولا أن هـذا البيت هو أول بيت وضع للناس ، وذكر لنا ثانياً أن هذا البيت مبارك وهدى للعالمين ، فهو الآن يظهر لنا جانباً آخر من جوانب تعظيم هذا البيت وتكريمه وتشريفه حيث يقول عز وجل : فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

وتعبيرات القرآن ذات دلالات وإيحاءات فانظر معى إلى قوله تعالى : « فيه آيات » فمعناها أن هذه الآيات تملأ أرجاءه ولا يخلو منها موضع قدم ، فحيثما نظرت وأينما سرت تستطيع أن تلمس بنفسك هذه الدلائل . ويؤكد هذا المعنى كلمة «آيات» فليست بآية واحدة إنما هى آيات ، واختيار كلمة «آيات» دون علامات يبين رفعة شأنها ، وأنها — فى كل جزء منها — ما يدعو إلى الإعجاب والصدق والتسليم ، وفى وصفها بأنها « بينات » زيادة تأكيد وداعية إيمـان .

ومن هذه الآيات البينات : مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

ولمـا كان الكفار يدركون هذين الأمرين بحواسهم : فهم يرون مقـام إبراهيم أمامهم ، ويشعرون بالأمان فى هذا البيت ، لذا لفت أنظارهم إلى ما يشاهدون حتى يلتفتون إلى نعمه فيشكروها ولا يكفروها .

ومقام إبراهيم : هو الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم فى بناء البيت ، يروى الإمام البخارى بسنده عن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول :

قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين . . يقول ابن كثير : « فهذا يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة .

لما ارتفع الجدار أتاه اسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى أتم جدار الكعبة ، وكانت آثار قدمية ظاهرة فيه ، ولم يزل هكذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ، ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة باللامية :

وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة ‏ ‏ ‏ على قدميـــه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً فقد روي عن أنس قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم (١) .

وكان هذا الحجر ملصقاً بجدار الكعبة فأخره عنها عمر حتى لا يشوش من يطوف بالبيت على المصلى عند المقام ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .. وإذا كانت هذه علاقة ظاهرة على أن هذا البيت له منزلة عالية عند من وضعه ليكون ملتقى البشرية فى أجيالها المتعاقبة ،فان العلاقة الأخرى هى مانقرؤه فى قوله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا . . » والأمان أعظم مطالب الإنسان وأغلى أمانيه ، وهذا ما جعله الله منخصائص بيتهحتى بعد أن انحرف العرب عن دين إبراهيم بقيت هذهالآيةالظاهرة دليلا علىقدسية هذا البيت وشرف واضعه ، فعن الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج . وهذا ما يذكر به القرآن قريشاً فيقول : أو لم يروا أنا جعلنا حـــرماً آمناً

---

(١) ابن كثير جـ١ ص ١٧٠ط دارأحياء التراث العربى . بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩ م .

ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون(١) .

وما يمتن عليهم به فيقول : لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . .(٢)

وهل رأيت أعظم من الأمان الذى جعله الله فى بيته فشمل مع الإنسان الطير والنبات والحيوان ؟

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى شريح العدوى قال : قام النبى ﷺ الغد من يوم فتح مكة فقال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لى ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس .

وعن ابن عباس فيما رواه الشيخان قال : قال رسول الله ﷺ : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها . .

ولهذ روي عن ابن عمر أنه قال : لو وجدت قاتل أبى فى الحرم ما هجته ، وقال ابن عباس : لو وجدت قاتل أبى فى الحرم لم أعرض له .

إن هذا الأمان الذى جعله الله للبلد الذي فيه البيت الحرام من يوم أن خلق السموات والأرض لجدير بالنظر والتأمل فانه آية باهرة دالة على ما فى هذا البيت من عظيم الأسرار وباهر الأفضال .

وتعبير القرآن عن حقيقة هذا الأمن يسكب مزيداً من الرضا والسكينة

---

(١) سورة العنكبوت ٦٧/٢٩.

(٢) سورة قريش ١٠٦ .

فى قلوب المؤمنين ، فلم يقل القرآن : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن داخله ولكنه قال : ومن دخله كان آمنا ، وفى هذا ما يفيد دوام هذا الأمان ، ولم لا يكون أمانا دائما وهو حكم صادر من قبل من يملك هذا الأمان وهو الله سبحانه ، وفى هذا التعبير أيضا بيان لقيمة ما أعطاه الله من هذا الأمن لكل من دخل بيته ، حتى العصاة فانهم بدخولهم آووا إلى ركن شديد واعتصموا ببيت الله وهم لا بد تائبون لربهم راجعون إليه .

الفصل الرابع

ايجاب الحج

قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » .

لقد رأينا ما أودع الله بيته من الشرف والمنزلة العالية ، وما اختصه به من التكريم مما يجعل المثول أمام صاحب هذا البيت فى بيته كرامة ومنزلة . وهذا ما أوجب الله على خلقه حين قال : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين .

وتلك هى معاملة الخالق الرحيم مع خلقه : يفرض عليهم ما يفرض بعد أن يبين لهم قيمة ما أوجبه عليهم وأثره النافع فى حياتهم ، وإن لم يبين لهم ذلك فى موقف من المواقف فانما ليعلمهم كيف يعبدونه ويدينون له بالطاعة والولاء ، فما أكرم وما أعظم وما أرحم إلهنا بنا .

وقد أوجب الله بهذه العبارة من الآية الكريمة الحج على الناس ، فأصبح الحج ركناً من أركان الإسلام ودعامة من دعائمه ، يقول رسول الله ﷺ : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا (١) .

ومن رحمة الله أن أوجبه مرة واحدة فى العمر : فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله الحج فى كل عام ؟ قال : لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لم تقوموا بها . ولو لم تقوموا بها لعذبتم (٢) .

---

(١) متفق عليه . (٢) ابن ماجة .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج ، فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع (١) .

والمولى سبحانه حين أوجبه قال : « ولله على الناس حج البيت » فبدأ العبارة باللام الدالة على الإيجاب والإلزام ، وزاد الإيجاب والإلزام تأكيداً قوله « على الناس » كما إذا قلت : لفلان على دين ، وهذا الوجوب على الناس الذين وضع لهم هذا البيت فهم كل البشر فعن مجاهد والضحاك وغيرهما أنه لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ أهل الملل من مشركي العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : « إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت » فلم يقبله إلا المسلمون وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نستقبله فأنزل الله : ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (٢) .

وكأن هذه دعوة للعالم كله للدخول فى دين الله والاستسلام لشريعة الإسلام وتفيؤ ظلال الحرم الآمن والدخول فى رحاب الله المطمئنة الهادئة الرحيمة ، لأن الحج وهو أحد أركان الإسلام لايقبل ممن لم ينطق بالشهادتين فاذا كان الحج واجباً على كل الناس وعلى كل البشر مسلمهم وكافرهم فهو أحد الأسس الإسلامية وجزء من كل يجب الإيمان بالجزء ويجب الإيمان بالكل ، يجب على الإنسانية أن تعود لدين الله وأن تستجيب لنداء رسول الله ﷺ يكون هذا الإسلام طريقها وحياتها ومنهجها .

وبعد هذا الإيجاب العام للحج على الناس جميعاً يقول : « من استطاع إليه سبيلا » .

فقد فرض الحج على الناس جميعاً لما فيه من الخير العميم والنفع العظيم

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم .

(٢) انظر فتح القدير للشوكانى جـ١ ط العثمانية ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م طـالحلبى بمصر

والعاقل من يبادر إلى اكتساب هذه الرحمات ، وفى الحديث : تعجلوا الحج — يعنى الفريضة — فان أحدكم لايدرى ما يعرض له (١).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد الحج فليتعجل (٢)..

ولكن ماذا يفعل من لم يقدر علي الحج ؟ هذا لاحج عليه إلى أن يجد .. لكن ما حدود هذه الاستطاعة ؟ لعل ماتلقيه كلمة « سبيلا » وما فى تقديم كلمة « إليه » عليها ، وما بين الله فى بيته من ألوان العظمة والخير والبركات مايجعل حدود هذه الاستطاعة أمراً تقدره النفس المؤمنة التي تعشق جوار ربها وتحن إلى بيته ، وتتوجه بكل مشاعرها إلى هذه القبلة فى اليوم خمس مرات فى الصلوات المفروضة وغيرها من الصلوات المسنونة .. فهى إن وجدت مخرجا من ضيقها ، وبصيصا يوصلها إلى بيت ربها لا تتوانى ولا تتأخر شأن المشوق الغائب ينتظر بادرة أمل ليلتقى بأحبابه ، يقطع المفاوز والقفار ، والبحار والأنهار ، والليل والنهار ، لايبالى تعباً ولا مشقة ولا يحس ألماً أو ضيقاً إنما يريد أن يصل إلى الحبيب ، يريد أن يمتع القلب والنفس ، يبتغى أن يرى منازل أحبابه وخلانه وأن يعانقهم وأن يخاطبهم ، ويروى كل ذرة فى كيانه بماء اللقاء وروعة الحضرة وأنس الاجتماع .

وهكذا أهل الإيمان فى نظرتهم لربهم وخالقهم . وهل بعد حب الله وحب رسوله حب ؟ إنهما أغلى على المؤمنين من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ولم لا ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين (٣)..

إنهم يحنون إلى لقيا ربهم فى بيته يمتعون البصر والفؤاد ، ويروون قلوبا عطشي إلى الكعبة والصفا والمروة وعرفة ومنى والمشعر الحرام .. إنهم يحجون

(١ ، ٢) رواهما الإمام أحمد

(٣) متفق عليه .

بقلوبهم وأجسادهم ، بل لقد حجت منهم القلوب قبل أن تحج منهم الأجساد ، لكن ها هى ذى فرصة متاحة وسبيل ميسور ، فمن يستطيع أن يتوانى أو يتكاسل ، وهى فرصة العمر ، وقد لا تعود .

بقى أن نعرف حدود هذه الإستطاعة كما أوضحتها السنة المطهرة ، فقد سئل رسول الله ﷺ : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : السبيل : أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به .

وعن النخعى قال : إن المحرم للمرأة من السبيل الذى قال الله .

وقد ثبت عنه ﷺ النهى للمرأة أن تسافر بغير ذى محرم .

وقد ذكر الفقهاء شروطا لوجوب الحج هى : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والإستطاعة ، ووجود محرم للمرأة أو نسوة ثقات معها .

فاذا اعتزمت أداء هذه الفريضة فبادر بالتوبة الخالصة ، ورد الحقـــوق لأصحابها ، واقض ما عليك من ديون ، وتجرد من سيء الأخـلاق وارتد فضائلها ، واترك لأسرتك ما يكفيهم إلى أن تعود سالما وباذن الله . واستشر من تتوسم فيه الصلاح ، واستخر ربك . واستعن به فى كل أمرك ، واقصد وجهه الكريم ، فى تضحيتك بالمال ، وفى تركك لأولادك ومن تحب ، وفى تجردك عند الميقات من ملابسك . وفيما تتحمله من مشاق السفر ما يعودك على التضحية والعطاء ، وما يذكرك بالله ولقائه والوقوف بين يديه — وتلك — والله — هى السعادة ، وهذه مفاتيحها أعطاها الله إليك .

إن الله حين فرض على الناس حج بيته أراد بهم خيراً ، وعليهم أن يعلموا أنه لو اجتمع أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم على أتقى قلب رجل واحد مازاد

(١) رواه الحاكم وغيره عن أبى أمامة .

ذلك فى ملك الله شيئا ، ولو اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكه شيئا ، فهم — إذن — الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، ولذلك كان ختام الآية هذا الوعيد الشديد ، فقد قال عز من قائل : ومن كفر فان الله غنى عن العالمين . . . أى ومن كفر بوجوب الحج ، أو من كفر بالله أو من استغنى عن الله ، وكلها ، معان متقاربة — فقد باء بالخزى والندامة ، والله ليس فى حاجة إلى إيمانه وطاعته ويكفينا فى هذا المقام قول رسول الله ﷺ من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر ، أوحاجة ظاهرة فليمت على أى حال شاء : يهودياً أو نصرانيا(١)

وقول عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينتظرا كل من كان له جده ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، وقوله : لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وأحمد فى كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقى .

الباب الثانى

ابراهيم عليه السلام - وقصة بناء البيت

الفصل الأول : هاجر واسماعيل عند البيت .

الفصل الثانى : فداء إسماعيل .

الفصل الثالث : ابراهيم يرفع القواعد من البيت واسماعيل .

الفصل الرابع : دعاء ابراهيم لمكة وأهلها .

الفصل الأول

« هاجر واسماعيل عند البيت »

قال تعالى : « ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم — ربنا — ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء » . [سورة ابراهيم ١٤ / ٣٧، ٣٨]

لقد رأينا فى آيتين من سورة آل عمران ما أودع الله بيته من الهداية والبركات وما حباه به من الفضل والتكريم وكيف أن بيتاً هذه صفته جدير بأن يحج الناس إليه من كل فج عميق . .

وموعدنا الآن مع إبراهيم الخليل الذى رفع القواعد من البيت وإسماعيل ، بعد أن أزال طوفان نوح — عليه السلام . آثار بيت الله ولم تبق إلا قواعده فكيف بنى إبراهيم وإسماعيل هذا البيت ؟

هنا نبدأ قصة إسماعيل من بدايتها كما عبرت عنها آيات من سورة إبراهيم إذا يقول عز وجل على لسان ابراهيم : ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم — إلى أن قال : وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا فى السماء .

يروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس قال : جاء ابراهيم بهاجر وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت : عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه

أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع — حتى بلغ — يشكرون ..

عاد ابراهيم صابراً محتسباً ، وبقيت هاجر فى هذا المكان الموحش فهل ينساها ربها ؟ ؟

لقد تلفتت هنا وهناك فما وجدت إلا رحمة الله وسكينته تحيطان بها ، وما هى إلا أوقات قصيرة حتى نفذ الزاد والماء وجف لبنها وكاد وليدها أن يموت جوعاً فماذا فعلت ؟ ؟

يقول ابن عباس : وجعلت أم اسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ مافي السقاء عطشت وعطش إبنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟؟

فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت : هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ! ! ففعلت ذلك سبع مرات . . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بغير ما تغرف ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت ، أو قال : لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً ، قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لاتخافوا الضيعة فان هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله . .

هذا هو إسماعيل وتلك أمه هاجر ما تركهما ربهما لأن هاجر فوضت الأمر لله فكان أن حماها الله وإبنها من الهلاك وفجر لها عينا من الماء ، وليس هذا فحسب إنما ساق الله لها من يؤنسها فقد مرت بهم جماعة من قبيلة جرهم فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائر يحوم حول الماء ، فتعجبوا وقالوا : لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا واحداً منهم فعاد فأخبرهم بوجود الماء فأقبلوا ، فقالوا لأم اسماعيل : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لاحق لكم فى الماء ، قالوا : نعم ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ..

أرأيت كيف يحمى الله عبادة الصالحين ؟ وكيف استجاب الله دعاء ابراهيم هذا الدعاء المعبر عن العبودية لله الواحد الأحد ، إنه ينادى خالقه بقوله : ربنا ولا يأتى بياء النداء لما يشعر به من ألم الفراق والبعد عن وليده الذى رزق به على الكبر ، فهو متلهف مندفع فى دعائه ، وكما قال الله فيه : (إن ابراهيم لحليم أواه منيب)[1] .

وهذا الابتهال إلى الله بهذا الإحساس المرهف لايترك لإبراهيم فرصة أن يقول : (يا ربنا) إنما هكذا (ربنا) وفي وصف لإلهه بالربوبية ما ينبيء عن شعور ابراهيم بأن أمر الله له أن يترك هاجر وولدها فى هذا المكان لون من التربية الإلهية وأن الله الذى عمت أفضاله الكون وسيرهذا الوجود كله لايمكن أن يغفل عن هؤلاء ..

ويزيد هـذه الضراعة تأكيداً قوله عليه السلام : إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ... فهذا واد لا أنيس فيه ولا جليس ، وتبدو خطورته فى أنه لازرع فيه ولا يصلح لذلك فكيف يقتاتون ؟ ولكنه أمرك يا الله ، أسكنتهما عند بيتك المحرم ، فلم يكن يعلم إبراهيم مكان البيت على وجه التحديد .

وتبدو عظمة جهاد ابراهيم حين يحدد الهدف من وجود هذا الابن فى ذلك

---

(١) سورة هود ١١/٧٥ .

المكان فيقول : ليقيموا الصلاة ، ولكنه — كعادته من المبالغة فى الضراعة والخشوع يقول : ربنا ليقيموا الصلاة .. أى أودعتهم رحابك الطاهر وحدهم ليكونوا أئمة هدى ومصابيح تنير للانسانية درب الحياة الطويل .

وإقامة الصلاة هدف يسعى لتحقيقه الأنبياء والصالحون ، وليس معناها مجرد أدائها تامة الأركان والشروط فهذا جزء من معني الإقامة ، ولكن معناها يفهم من قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) [١] .

ومن قوله سبحانه : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) [٢].

فهى تحتاج إلى تعاون الأمة وتناصرها ، وتحتاج إلى الجهاد بكل ألوان الجهاد لتصبح طريق حياة ومنهج سلوك ، ولا تتصور أن الظالمين يتركون أهل الإيمان يقيمون الصلاة ، إنهم قد يتركونهم يصلون ، ولكن أن تكون هذه الصلاة عنوان الأمة فتخرج الناس من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد وأن تحررهم من شهواتهم وأطماعهم وضعفهم ، وأن تكون منهم صفاً متراصاً لايرضى بالضيم ولا يقبل الهوان ، فهذا ما لايسلم به المجرمون إلا ببذل الغالى والنفيس والتضحية من أهل الإيمان بما ملكت أيديهم ، وهذا ما فعل ابراهيم عليه السلام ، ويتودد لربه أن يعينهم فى أداء مهمتهم بأن يجمع الناس حول ذريته حتي يشعروا بالأنس وأن يرزقهم من الثمرات فقال : فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .. واستجاب الله دعاء ابراهيم فأرسل جرهم لتقيم معهم وفجر لهم زمزم ورزقهم من الثمرات فكان منهم الشكر الدائم لله ولي النعمة وصاحب العطاء .. وسارت دعوة ابراهيم

---

(١) سورة التوبة ٧١/٩

(٢) سورة الحج ٤١/٢٢

عبر القرون واختلطت بالقلوب والمشاعر ، فما من نفس مؤمنة إلا وتهفو وتحن وتتشوق لبيت الله وساكنيه ، وقد أفاض الله على أهل هذا البيت ألواناً من الخيرات والبركات والثمرات من عهد ابراهيم إلى وقتنا الحاضر ، وما ذلك إلا استجابة لنداء هذا النبي الكريم .

ولننظر إلى توكل ابراهيم على ربه ولنسمعه ينادى ربه فيقول : ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن . (أى ما نخفيه يتساوى عندك بما نعلنه فأنت تعلمه كله ولا يغيب عنك ، أو تعلم ما نخفيه من حبنا لولدنا وما نعلنه من التفويض إليك وتعلم ما نخفيه من الإخلاص المستقر فى قلوبنا وما نعلنه من هذا الاخلاص ، وتعلم كل ما نخفيه وكل ما نبديه : (وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا في السماء) فسبحان الأول والآخر والظاهر والباطن ومن هو بكل شيء عليم .

فمن يستطيع أن يضحي كما ضحي ابراهيم عليه السلام ؟ ومن يستطيع أن يبذل كما بذل . ؟ إن هذا هو الطريق لمن أراد لمبادىء الحق أن تسود العالمين وأن ترتفع راياتها خفاقة في ربوع الأرض .

الفصـل الثـانى

فـداء اسماعيـل

قال تعالى : (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى في المَنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) .

[سورة الصافات ٣٧/٩٩—١١٣]

يذكر المسلمون وهم يؤدون مناسك الحج مواقف التضحية والفداء ويرون ألواناً من الرفعة الإنسانية متمثلة فيمن ضحوا وتحملوا الصعاب فى سبيل إقرار كلمة الله فى الأرض وأصبح بعض ما فعلوه منسكا من مناسك الحج يسجله القرآن بأسلوبه الأخاذ الفذ ليبقى ذكر هؤلاء المجاهدين نبراساً يضىء الطريق أمام دعاة الحق وأنصار الإيمان .

ولقد رأينا هـذا الامتحان الذى نجح فيه ابراهيم وزوجه هاجر حين استسلما لأمر الله ، وكيف ولى ابراهيم ظهره إليها ووقف — بعيداً — يدعو ربه أن يجعـل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، وكيف أن هاجر حين علمت أن ذلك أمر الله قالت : . إذن لا يضيعنا . هذه الأسرة المؤمنة على موعد مع امتحان — جديد — لا يطيقه إلا الأفذاذ من أهل الإيمان ولنعش مع بداية هذه القصة : قصة ابتلاء آل إبراهيم وكيف كان ؟

إن ذلك يبدأ بقوله سبحانه : وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) . فمن يهاجر ابراهيم ؟ إن قومه لم يستجيبوا له ، ولم يستمعوا لداعى العقل يرشدهم إلى الحق ، إنما رأوا فى ابراهيم مصدر خطر على معتقداتهم وأوضاعهم . . فكيف يتخلصون منه ؟ (قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) ظناً منهم أن هذا هو الجحيم الذى سيحرق ابراهيم ويخلصهم منه إلى الأبد ، ولكن السماء والأرض والجبال والملائكة قالت : ربنا . خليلك ابراهيم يحرق ؟ ؟

قال : أنا أعلم به وإن دعاكم فأغيثوه ، فقال ابراهيم : اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ، ليس أحد فى الأرض يعبدك غيرى . . حسبي الله ونعم الوكيل . فصدر الأمر الإلهى : (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم) (١).

وماذا يصنع العباد الضعاف أمام قدرة القادر ؟؟ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) (٢).

من هؤلاء القوم الذين طمس الباطل عقولهم وقلوبهم هاجر ابراهيم إلى الشام وأعلن أمامهم : (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) إنها هجرة إلى الله . . هجرة النفس حين تتخلص من كل العوائق والعلائق والرغائب فلا يشدها إلا ما فيه رضا ربها : لم يعد لأهله ولا لدياره التى عاش فيها ولا لأحد عليه من سلطان .

وهجرة الروح إلى ربها حتى لترتفع عن الملذات والدنايا . .

وهجرة الجسد حين يفارق ذلك كله ويقطع الصحارى ويجوب البلاد ، متعرضاً للاهوال ، مهاجر إلى الله . . وإنها هجرة (إلى ربى) . . إنه رب

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/٦٩

(٢) سورة الأنبياء ٢١/٧٠ .

العالمين .. لكن ابراهيم يضيف هذه الربوبية لنفسه شعوراً منه بأن كل حياته ملك لله ، وأن كل لحظة فيها تدبرها وتديرها يد ربه الكريم العليم .

ولو عدنا إلى قوله : (إنى ذاهب إلى ربى) لوجدناها ينبىء عن وضوح الهدف أمامه وتحديد الغاية من حياته كلها بأسلوب يفيد ثبات هذه الحقيقة فى سلوكه كله ودوامها ، فالغاية والمقصد والهدف المنشود الله الذى رباه .

ويؤكد هذا المعنى ثقته فى فضل مولاه ، وعلمه التام بما يصنعه له خالقه فى كل أمر ، وتوكله الدائم على سيده ، وذلك ما يعبر عنه قوله : (سيهدين) فكأنه قال : أنا واثق من أن الله لا يضيعنى ولا يتركنى إنه لى نعم المولى ونعم النصير .

هاجر ابراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين ، وهو يحن إلى الأليف والجليس والمؤانس ، ومرت به تلك السنوات الطوال لم يرزق بولد ، وهاهو ذا أصبح بحاجة للولد يعينه على حمل أعباء الرسالة والدعوة إلى الله ، ولهذا توجه إلى من تعود منه الكرم والعطاء فقال : (رب هب لى من الصالحين) ولعلك تدرك معنى مدى ما فى هذا المطلب من الضراعة والأدب وحسن الاختيار ووضوح الغاية من الذرية والولد .. فهو يسأل من رباه على موائد كرمه محض الفضل بأن يهب له من الصالحين ..

والهبة : عطاء وتكرم لا تحتاج فى مقابلها إلا إلى الشكر ، وهكذا شعور المؤمن : ينظر فيرى أن الله وهب له ما فى هذا الكون وسخر له ما فى هذا الوجود ابتداء تفضلا منه وكرماً . قال تعالى : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١) .

فسبحانه من إله كريم عظيم .

والغاية من الذرية تبدو فى قوله : (من الصالحين) . فهو يبتغى ذرية

---

(١) سورة الجاثية ٤٥ / ١٣

صالحة تعينه في أمر دينه ودنياه . وذلك أفق عال لا يتيسر إلا لمن استنارت بصائرهم بنور الله . وماذا فى الذرية بعد الصلاح ؟ !

إنها لكلمة جامعة جمعت الخير من أطرافه والسعادة من جوانبها . . ولهذا الدعاء الخاشع فى محراب الإله تجاوبت السماء وأتت ابراهيم البشرى : (فبشرناه بغلام حليم) .

والبشرى : إنما تكون بما يشرح الصدور ويملأها بهجة وسروراً ، وقد جمعت هذه البشرى عدة بشارات : فهى وعد من الله بأن يكون المولود ذكراً وأن يبقى هذا الغلام إلى أن يتصف بالحلم ، وما فى هـذا الوصف للغـلام بأنه حليم ما يشير إلى صلاحه المبكر ، وما فيه من مخايل النبل والفهم والإدراك الصحيح فى هذا السن : سن الغـلام ، والحلم ، الذى اتصف به راسخ متين وصل فيه إلى أعلى درجاته . والحلم : صفة تجمع عدة صفات ، كلها من خصائص النفس العظيمة : تجمـع الإيمـان وقوة الإرادة ، وسـير الأمور ، والتروى عند المشكلات ، وسداد الرأى ، وعظيم الفهم ، وغير ذلك كثير ، وهذا ما بشر به ابراهيم ، وكان بهذا الفضل جديراً ، فله القدم الراسخ فى الإيمان والتسليم المطلق لله ، والإنابة الكاملة لربه . وعلى قدر هـذا العطاء كان الاختبار فكان اختباراً صعباً إلا على أصحاب القلوب العامرة بالتقى المهتدية بهدايات الله . . بدأت أولى مراحل هـذا الاختبار بأمر الله له أن يرحل بهاجر واسماعيل ليسكنهما عند بيت الله المحرم دون أنيس أو جليس وفى هذا نجح ابراهيم كل النجاح وما إن شب اسماعيل وترعرع حتى كانت المرحلة الثانية تلك التى يقول فيها ربنا : (فلما بلغ معه السعي قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) ، قال : (يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى — إن شاء — الله من الصابرين) .

لقد رزق ابراهيم باسماعيل على الكبر وخاض تجربة صعبة وهو يودع وحيده وفلذة كبده فى واد بمكة ليس لهم إلا الله حافظا ومؤنسا ، والآن هـذا هو بيت ابراهيم كله يدخل تجربة ليست كسائر التجارب ، أنها ذبح

اسماعيل ، ويد من ؟؟ يد أبيه .. هذا الأب العجوز الرحيم ، ولو أن يد المنون اختطفت اسماعيل أو ذهب لساحة قتال فمات فيها ؟ ولو كان لابراهيم غير هذا الإبن، أو لوكان هذا الابن عاقاً شاذاً لا قيمة له لهان الأمر ، ولكن الأمر أمر الله ، والامتثال إليه شأن الصالحين الصادقين ..

ورأى ابراهيم فى منامه أنه يذبح إسماعيل فقال : لعلها رؤية غير صادقة فأصبح الصباح فى يوم الثامن من ذى الحجة وهو يدير الرأى ويتروى فى فى تنفيذ مارأى ، وفى الليلة التالية كانت الرؤيا بعينها فأصبح وقدعرف أنها الحق ، وفى الليلة الثالثة رأى كما رأى فى الليلتين السابقتين فأصبح متجهالربه عازما تنفيذ أمره ، فسمى اليوم الثامن يوم التروية ، والثانى يوم عرفة ، والثالث يوم النحر ، فكيف نفذ ابراهيم ما رأى فى منامه ؟؟ لقد قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟؟

هكذا بلغه الواثق من فضل الله ، العابد لمولاه ينادى ابنه بهذا الهدوء كله ، وهذا الاطمئنان إلى قدر الله .. يا للعظمة ! ! إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ؟؟ إنها رؤيا منامية : تصدق أو تكذب ، وخاصة إذا كان فيها مثل هذا الأمر الشديد ، ولكن متي كانت رؤيا الأنبياء تحتمل الصدق والكذب وهم الذين تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، إن رؤيا الأنبياء وحى من الله .. كما قال ابن عباس وغيره مستدلين بهذه الآية .

ولقد نادى ابراهيم اسماعيل بصفة النبوة وفيها من الرحمة والعطف والمحبة مالا يخفى .. وأكد مارآه فى منامه بهذا التأكيد : إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، وطلب منه المشورة والرأى ثقة منه فيما عليه ابنه من العقل والذكاء ولئلا يحرم من ثواب الإخلاص لله والتسليم له فقال : فانظر ماذا ترى ؟ ؟ بهذا الهدوء وتلك السكينة .. كأن ذلك من الأمور العادية فى حياة الناس : يتشاورن فيها دون انفعال أو اضطراب .. فماذا قال الابن لأبيه ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .. بهذا الأدب : (يا أبت) بما فيها من فهم الإبن لمقام الأبوة ومالها منعظيم الإجلال والتقدير وما يتجمع فيها من عناصر الحب والرحمة بالأبناء .

وبهذا الإدراك : (أفعل ما تؤمر) . فقد أدرك أن رؤيا الأنبياء وحى لا يحتاج إلى نقاش ، وأمر لابد فيه من التسليم .

وبهذا التواضع : ستجدنى — إن شاء الله — من الصابرين ، فلم يظهر بطولة ، ولم يفخر بما قدم ، إنما طمأن والده بقوله : ستجدنى . . أى رهن الإشارة ، منفذ لما أراد الله ، ووكل ذلك لمشيئة الله التى تقدر العباد على مايريدون وذلك ما تراه فى قوله : (إن شاء الله) .

وأدخل نفسه مع الصابرين ، ولم يدع أنه الرجل الذى لايبارى فى هذا المجال فقال : من الصابرين ، وكأنه يشفق على أبيه من هول هذا الموقف فأراد — بأدب البنوة الصالحة — أن يذكره بالصبر والصابرين . فكيف تم التنفيذ ؟ ؟

هنا يلعب الشيطان دوراً خطيراً فقد ورد فى الخبر أن الشيطان قال : والله إن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً . فحاول أن يوسوس لهاجر وأن يخوفها منذلك وقال لها : إن ابراهيم يزعم أن ربه أمره بهذا .. فقالت : فان كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه ، فانصرف عنها اللعين ، وحاول من قبل إسماعيل ، فرد عليه : فليفعل أبى ما أمره الله به ، سمعاً وطاعة لأمر الله ، وبذل جهداً جاهداً مع ابراهيم فقد قال له : أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح ابنك ! ! فعرفه ابراهيم فقال : إليك عني ياعدو الله ، فو الله لأمضين لأمر ربى ، ولم يكتف إبليس بذلك . قال ابن عباس : لما أمر ابراهيم بذبح ابنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتي ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطي ، فرماه بسبع حصيات حتي ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتي ذهب ، ثم مضي ابراهيم لأمر الله وذلك هو رمى الجمار ، فإذا وفقك الله لأداء ما افترض عليك ورميت هذه الجمار فتذكر جهاد آل بيت ابراهيم ، وتعلم منهم كيف تنتصر علي كل شيطان .

وأتى ابراهيم المنحر من منى ومعه إسماعيل لينفذ أمر الله والكل مستسلم

لأمر الإله ، منقاد لما أراد وقدر هذا ابراهيم قد أسلم ابنه لربه وفوض الأمر لخالقه وهذا إسماعيل قد أسلم نفسه لربه وترك الأمر لمولاه .. ولننظر إلى هذا التسليم المطلق ، ولنتدبر قول هـذا الغلام الصالح وهو يقول لأبيـه : يا أبت شدد رباطى حتى لا أضطرب ، وإكفف عنى ثيابى حتى لاينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن ، وأسرع من السكين على حلقى فيكون أهون للموت على ، فاذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام منى .. فأقبل أبوه عليه يقبله وكل منهما يبكى ..

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال لأبيه وكان عليه قميص أبيض : يا أبت ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه عنى حتى تكفننى فيه فعالجه ليخلعه فكان ماقص الله عز وجل ، والقرآن يصور هذا الموقف الرهيب فيقول : فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ..

ولنتأمل تلك الصورة الرفيعـة التى يرسمها القرآن : فلما أسلما : هكذا دون تحديد لما أسلماه ليعطى صورة التسليم المطلق ، والعبودية الكاملة لله في كل ما أراد . وفى (تله للجبين) أى كبه على وجهه . صورة تحدد إطارها هذه العبارة القصيرة الموحية بسرعة التنفيذ وكيف كان : صورة غلام ملقى على جبينه فى الأرض مقيداً بوثاق شديد ، ويا لهول هذا المنظر الذى اهتزت له السماء والأرض ، ووقف الكون كله دهشاً مبهور الأنفاس لما يرى .. هذا النبي الكريم ، وهذا الابن الطيب الطاهر أسلما لله ، ولكن السكين لا تقطع هذا السكين هو الآخر ماذا حدث له ؟ هل يشارك أيضاً فى المحنة والإبتلاء ؟ أو أنه استحيا أن يريق هذا الدم الذكي على التراب ؟ أو أنه أشفق على هذا الأب الذى أحنت ظهره السنون ؟ أو أن الأمر غير ذلك كله ؟؟

نعم .. فقد سلب الإله العظيم خاصية القطع من تلك السكين ، وجعلها — إكراماً لإسماعيل وأبيه — كليلة عاجزة عن القطع .. ولم لا ؟ والحق تبارك وتعالى إذا علم من عبده الإخلاص وصدق النية في الجهاد حفظ عليه

نفسه وماله وولده وأعطاه ما اعتاده معه من الكرم والفضل الرباني ، فاذا أخذ من ذلك شيئاً فانما هو الابتلاء — أيضاً — رفعه لدرجة المجاهدين .. لذا نزل الأمين جبريل يخترق السبع الطباق ينادي مبلغاً عن رب العزة : « أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » ، وبذلت ما في وسعك وحققت ما أوحى الله إليك ونجحت في الإختبار « إنا كذلك نجزى المحسنين » .

لقد حقق ابراهيم أمر الله بهذا الصبر العجيب فكان له جزاء المحسنين ، والقرآن حين يشير لهذا الجزاء الجليل بقوله : « كذلك » إنما يدل على رفعة هذا الجزاء وعلو شأنه .. ولم لا يكون رفيع القدر عالي الدرجة وهو من عند الله العظيم ، ومما يدل على سمو هذا الجزاء قوله سبحانه : « نجزى المحسنين » فهو جزاء دائم متجدد ، كلما تقرب المحسن من ربه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، وكلما تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعاً ، وإذا أتاه يمشي أتاه — سبحانه — هرولة ، والإحسان الذى وصل فيه ابراهيم للقمة هو أقصى درجات العبودية لله .. وهو كما قال الرسول ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

ومن هنا كأن ابراهيم جديراً بتلك الشهادة الغالية تلك التي يعبر عنها قول الحق سبحانه : « إن هذا لهو البلاء المبين » وانظر كيف أكد هذه الشهادة كل التأكيد وعبر عن هذا الاختبار بأنه بلاء ووصفه بأنه مبين : أى ظاهر لاتخفى صعوبته ومشقته على النفوس .. وكيف أشار إليه بهـذا .. ليبين مدى قربه من الله وقرب هذا الأمر وتناول ابراهيم له بتلك السهولة وهذا التسليم الفـذ الفريد مما يرفع درجة هذا البلاء وتزيده عمقاً واتساعاً ، وكأن الإله العظيم أراد أن يقول لنا : إن مافعله آل ابراهيم فى يسر وإيمان وتفويض مما ذكرت عنهم من التضحية لهى الاختبار والإبتلاء الصعب الذى يعز على كثير من الناس أن يصلوا إلى أوجه العالى الرفيع .. ولو لم يكن لابراهيم إلا هـذه الشهادة من قبل الله فقط لكانت موضع فخار واعتزاز على وجه الزمن ، لكن الرب الكريم أراد تكريماً آخر لهؤلاء الصابرين فقال : « وفديناه بذبح عظيم » .

فحين سمع ابراهيم النداء كف عن ذبح ولده ونظر فاذا بجواره كبش أبيض أقرن أعين فأمر هـذا السكين الذى لم يكن منذ لحظات ليقطع أوداج غلام كاسماعيل .. أمرّ سكينة على رقبة هذا الكبش نخر صريعاً فى الحال .. قال مجاهد : وصف الذبح بالعظم لأنه متقبل يقيناً ، وقال الحسن بن الفضل : لأنه كان من عند الله عز وجل .. وقال أبو بكر بن الوراق : لأنه لم يكن عن نسل بل كان عن التكوين ولأنه جرت السنة به وصار ديناً باقياً آخر الدهر، وقيل : لأنه فدى به نبي وابن نبي ، ومن هذا التكريم وذلك الجزاء أن رفع الله ذكر ابراهيم في فم الدهر فقال: « وتركنا عليه فى الآخرين » أى تركنا عليه ثناء حسناً وذكراً عاطراً فى كل أمة ، فما من أهل دين إلا ويودون الانتساب إليه ، وإن كان الحق تبارك وتعالى قد حسم حقيقة هـذه الدعوى ومن يستحق الانتساب إلى هذا النبي الكريم فقال : « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين »(١) .

وما أروع هذا السلام من لدن السلام : « سلام على إبراهيم » إنه سلام عام من الله يحيط بالنفس والبدن ويشمل الدنيا والآخرة ويجمع أقصى مايطلبه إنسان في الحياة من السلام والأمان ، وبمثل هذا التكريم وهذا الجزاء يجزى الله المحسنين .. « كذلك نجزى المحسنين » .

فما أعطاه الله لابراهيم هو الأصل الذى يقاس عليه جزاء المحسنين وهو النبراس الذى يتطلع إليه أهل الإيمان وهو الدرس الذى يمثل به كل جزاء عظيم ..

ولم لايستحق ابراهيم هذا العطاء وقد نال شهادة أخرى من المولى عزوجل فقد قال فيه المولى سبحانه : « إنه من عبادنا المؤمنين » . لقد كانت عبوديته لله ثابتة لا تميل مع الضعف ولا تنثنى مع كيد الشيطان ، ولا يؤثر فيها مر الأيام ، إنما تزيد مع الأيام صلابة وقوة . إنها عبودية للاله العظيم ، وشهادة من

---

(١) سورة آل عمران ٣/٦٨

المطلع على السرائر بأن ابراهيم عبد مؤمن إيماناً مطلقاً لاتحده الحدود ولا تزلزله العواصف .. فكان له مع هـــذا كله أن أبقى الله له اسماعيل : « وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين » وهى بشارة فيها بشارات : أولاها : أنه ذكر . . اسمه اسحاق ، وثانيها : أنه ينال شرف النبوة ، وما أعظمه من شرف ، وثالثها : أن يكون من الصالحين من بداية حياته إلى أن ينال شرف الرسالة وإلى أن يلقى الله . وبشرى أخرى لابراهيم . هى أن يبارك الله له فى ولده : «وباركنا عليه وعلى اسحاق» . فكان من اسماعيل خاتم الأنبياء محمد عليه السلام وكان من اسحاق يعقوب وجميع أنبياء بنى اسرائيل ، وبهذا جعل الله بيت ابراهيم على امتداد التاريخ مصدر خير وبركة ومركز توجيه ربانى . وجعل النبوة فى هذا البيت وإن كان الأمر كما قال المولى سبحانه : ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

فاذا جاء يوم النحر وأرقت دم أضحيتك أو هديك فاذكر اسم الله على ما تذبح وتوجه بذبيحتك إلى الله .

فعن جابر قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عيد بكبشين فقال حين وجههما : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، اللهم منك ولك عن محمد وأمته »[١] .

واذكر تضحية أبيك ابراهيم الخليل وأهل بيته ، وكن مستعداً لأن تضحى كما ضحوا لتسعد كما سعدوا ولتنال الرضا والفوز الأكبر ، فما أحوج أمبادىء الحق والخير والسلام إلى تضحيتك قبل أن يطفىء بريقها وأنوارها أعداء الله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »[٢] .

---

(١) رواه ابن ماجه ، وانظر نيل الأوطار للشوكانى جـ ٥ ص ١٣٨ — الطبعة الأخيرة لشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٢) سورة التوبة ٣٢/٩ .

الفصل الثالث

« ابراهيم يرفع القواعد من البيت واسماعيل »

قال تعالى : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . [سورة البقرة ١٢٧/٢ — ١٢٩]

لقد اقتبسنا من أنوار القرآن في آيات الحج ما أنار لنا الطريق فرأينا في المرحلة الأولي أن هذا البيت هو أول بيت وضع للانسانية ، وأن الله شرفه وعظمه وكرمه وجعله منارة هدى للعالمين وأوجب حجه على الناس جميعاً ، وفى المرحلة الثانية : رأينا هجرة إبراهيم الخليل من قومه وأمر الله له أن يسكن هاجر وإسماعيل بجوار هذ البيت وكيف كان تمحيص الله وإختباره لآل إبراهيم حين أمر بذبح ولده فنجح فى الإبتلاء وصبر فى المحنة فأجزل الله له العطاء .

ونحن الآن فى مرحلة أخرى نرى فيها كيف بنى البيت الحرام بعد أن انمحى رسمه وتهدم بناؤه وفى هذا يقول ربنا : « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل — إلى أن قال : إنك أنت العزيز الحكيم » .

يروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس قوله : وماتت أم إسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرٍّ نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال :

هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال فهل أوصاك بشيء ؟ قالت . نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبت بابك ، قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فألحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم ما شاء الله ثم أتاهم فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير ، نحن في سعة وأثنت على الله عز وجل ، قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء، قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لدعا لهم فيه » قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل قال: هل أتاكم من أحد ؟ قالت ، نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، وسألنى عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة (أى شجرة كبيرة) قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال: ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر . . قاله : فاصنع ما أمرك ربك . . قال ، وتعيننى : قال : وأعينك ، قال : فان الله أمرنى بأمر أن أبنى هنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

والحق تبارك وتعالى يأمر رسوله أن يذكر هذا الأمر الجليل ليحدد له معالم الطريق وليقول لبني إسرائيل ولمشركي العرب : هذا هو إبراهيم الذى تنتسبون إليه قد إختاره الله ليعيد بناء أول بيت وضع للناس وكان وحده ليس له من معين بعد الله إلا ابنه إسماعيل وقد تحملا النصب والمشقة فى الكشف

عن قواعد البيت وجمع الأحجار ورفع البناء حتى استوى : علم هدى ، ومرفأ أمان ، وذلك كله طاعة لله . . وكل نصب ومشقة فى سبيل الله تهون . . هذا إبراهيم وإسماعيل لم يشركا بالله شيئاً . . «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين »[1] فكيف أشركتم بالله وإنحرفتم عن ملة ابراهيم ؟؟ إنه كان مخلصاً لله وكان إبنه أيضاً كذلك ، واستمعوا إلى تلك الترنيمة العذبة ، وهذا النشيد الجميل الذى كانا يرددانه وهما يحملان الحجارة ويتحملان الصعاب .. كانا يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . . إنهما يعترفان بربوبية الله ويسألانه بحق هذه الربوبية أن يتقبل منهم . . : روى عن وهيب بن الورد أنه كان يقرأ : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا . . ثم يبكى ويقول : ياخليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا تتقبل منك ؟

قال ابن كثير عليه رحمة الله : وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله : «والذين يؤتون ما آتو » أي يعطون ماأعطوا من الصدقات والنفقات والقربات « وقلوبهم وجلة » . أى خائفة ألا يتقبل منهم . .[2]

وفى قول ابراهيم واسماعيل « انك أنت السميع العليم » ما يشير إلى ماامتازوا به من الإخلاص ، ومالهما من شفا فيه روحية وقلوب نقية ، فهما حين يضرعان إلى الله أن يتقبل منهما يضيفان ضراعة أخرى فيها أسباب القبول والرضا عن عملهما فكانهما قالا : تقبل منا ياربنا فأنت أعظم من يسمع نداءنا ورجاءنا ، بل سمعك محيط لما يجرى فى هذا الوجود : فى غيبه وشهوده : تسمع دبيب النملة العمياء علي الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، وأنت ياربنا خير من يعلم إخلاصنا لك وضراعتنا بين يديك بل علمك لاتحده الحدود ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ..[3] « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم

---

(١) سوره النحل ١٦ / ١٢٠
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ١٧٥
(٣) سورة غافر ١٩/٤٠

ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . .»[1]

ويواصل إبراهيم وإسماعيل الدعاء وهما يرفعان القواعد من البيت فيقولان ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

لقد بدأ دعاءهما الأول : ربنا تقبل منا ، وهنا : ربنا واجعلنا مسلمين لك . وفى هذا البدء وذلك التكرار إستعطاف العبد الصادق المخلص لسيده ومولاه.. وفيه شعورهما بما حولهما . ومن حولهما ، فيه الحياة بكل ما فى الحياة من معنى ، حين ينبض القلب كما ينبض هذا الوجود فيرى المرء نفسه مربوباً لله شأن الوجود كله : « وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . »(٢) فيتجاوب بكل نبضة فيه منادياً ومنادياً وضارعاً ومنيباً : ياربنا . . ياربنا . . بل إن شوقه لربه واحساسه بحاجته لخالقه ، واندفاعه نحو ساحة مولاه لا يدع له فرصة ليأتى فى ندائه « يا » فيقول : ياربنا ، انما هكذا دون نداء : ربنا . . ربنا . . ربنا . . يتوج بها كل مطلب ، ويأتى بها مع كل دعاء . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » انه مطلب عال أن يثبتهما الله على الإسلام له . . والإسلام لله : اخلاص القلب له وحده . والتوجه بكل لحظة ـ الى جنابه الحق ، بحيث لا يبقى فى حياة المسلم سوى الله : مأكله ومشربه ، قيامه وقعوده ، يقظته ومنامه ، نفسه وروحه ، ماله وأهله وولده ، كله موجه فى طريق الله ، ولا شك أن هذا أمر يستدعى دوام اليقظة ويتطلب دوام الرعاية الإلهية ، والوصول اليه يحتاج الى بذل الجهد ومحاربة الـ[illegible]ـطان والإنتصار فى هذا الميدان ، ، يعنى إنتصار الإنسان فى كل [illegible] يعنى الفوز الأكبر ، وذلك هو الفوز العظيم .. وهذا ما بادر [illegible] بسؤال الله أن يحققه لهما ، وأن يديمه عليهما حين قالا : ربنا و[illegible]

(١) سورة الأنعام ٦/٥٧

(٢)سورة الإسراء ١٧/٤٤

ومما هو وثيق الصلة بهذا المطلب قولهما : ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، فهما يريدان إمتداداً لغرس الإيمان ، ونماءاً لشجرة الإسلام ، وهذا شأن المخلصين دائماً ، يريدون للانسانية أن تحيا فى النور وأن تتذوق السعادة ، ولا سعادة إلا بالإسلام ، ولا حياة إلا بالإيمان : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (١) .

لكن ماذا يصنع أهل الإخلاص والناس استعدادات تميل إلى الخير تارة وإلي الشر أخرى ؟؟ وها هو ذا ابراهيم بعد أن أعطاه الله الإمامة للناس قال : « ومن ذريتي » على عادته فى حب الخير فقال له المولى : « لا ينال عهدى الظالمين » .

وهنا يقول هو واسماعيل : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » أي واجعل بعض ذريتنا أمة مسلمة لك .. وعلي هذه الأمة وتلك الجماعة من ذرية ابراهيم واسماعيل تقوم أعباء الدعوة إلى الله ، وتنهض البشرية كلما كبت على نداء هذه الجماعة فتعرف طريقها الصحيح : طريق إسلام الوجه له وحده ، والتحرر من ربقة العبودية للعباد ، والعبودية للشهوات والأهواء ، إلى العبودية للخالق العظيم فتشعر فى رحابه بالحرية والأمان . .

وقد ضرب ابراهيم المثل الأعلى فى مجال الاستسلام لله : « إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » وانطلقت دعوته عبر الأجيال ، فلم يخل جيل من دعاة الإيمان والتوحيد والإسلام لله : « ووصي بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » إلى أن كانت الأمة الإسلامية وإمامها خاتم الأنبياء ، صاحبة الرسالة العظمى فأمرها الله ووجه خطابه إلى رسوله عليه السلام باعتباره المثل والقدوة فقال

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢/٦

(٢) سورة البقرة ١٣٢/٢ — ١٣٣

جل شأنه : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) .

فلنكن من هذه الأمة وتلك الجماعة التى اختارها الله للقيام بأمره وتبليغ دعوته قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (٢) .

ولنلمس معاً هـذه الصورة التي ترسمهـا عبارات الوحى الخالد لابراهيم واسماعيل يتصبب عرقهما وهما يبنيان البيت وألسنتهما رطبة بذكر الله عطرة بدعائه يطلبان القبول ويرجوان الثبات على الإسلام ويأملان أن يبقى هـذا الإسلام فى ذريتهما جيلا بعد جيل ، ويتجهان الي الله قائلين : (وأرنا مناسكنا) أى علمنا مناسك الحج فما أن فرغ ابراهيم واسماعيل من البناء حتي بعث الله جبريل فحج بهما .. لكنهما لم يقولا : علمنا ، انما قالا : أرنا ، والرؤية كشف وإيضاح ، وعلم وتعليم ، والمناسك التي طلبا الكشف عنها جمع منسك ، والنسك فى لغتنا العربية بمعنى الغسل ، يقال نسك ثوبه اذا غسلته ، فكأن المناسك تطهير للنفس مما قد ران عليها ، وتنقية للقلب من مداخل الشياطين ، وهذا ما يشعر به كل من حج بيت الله وأدى مناسك الحج كما أراه الله ، ولهذا لا عجب أن رجع الحاج من حجه طاهراً من الذنوب كيوم ولدته أمه ..

والتوبة : ختام الآيه الكريمة : (وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) وما أعظمه من ختام ، إنه يدل على البصيرة المستنيرة بنور الله : فطلب القبول منهما وأن يجعلهما مسلمين وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبصرهما طريق أداء شعائر الحج ومناسك العبادة ، قد يقع فى تلك الدعوات شيء من التقصير ، وقد يكون فى تلك المطالب ما لا يصل الي حد الكمال الذى رضي عنه الله ، قد

(١) سورة الأنعام ٦/١٦١ — ١٦٣ .
(٢) سورة آل عمران ٣/١٠٤

ينظر الله الى العبد وهو فى حالة لا يرضاها فلا يتقبل منه ، وقد يكون الاستسلام كله فى كل أمر غير ميسور فى كل حال فيعترى الإنسان ضعفه وعجزه فيميل هنا أو هناك . وقد يسهو الإنسان فى أداء منسك من مناسك الحج فلا يصل الي الحد المطلوب ، هنا لابد من التوبة ، والتوبة توفيق من الله قال تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) (١) . وهى تطلب من المتصف بدوام القبول للتائبين والمتصف بكل ألوان الرحمة : (إنك أنت التواب الرحيم) .

وانظر إلى هـذا القول الذى يشع منه الأدب والإخلاص لله ، إنهما لا يكتفيان بمجرد وصف الله بقبول التوبة والرحمة ، إنما يأتيان بهـذة العبارة كدليل استعطاف يقدمانه شفيعاً لمطلبهما : « وتب علينا » ويؤكدان هاتين الصفتين بالخطاب المباشر لله ، وبكلمة « إن » وكلمة « أنت » واختيار : التواب ، الرحيم ، وبضم هذه الكلمات يأتى من العبادة معنى الدوام والثبات ، أى أنت ياربنا دائم التوبة على عبيدك ، ودائم الرحمة بهم ، وماعصى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ولا قصراً ، ولكنه أدب النبوة العالى ، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ وقد قام الليل حتى تورمت قدماه فأشفقت عليه أم المؤمنين عائشة وقالت : (لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) (٢) .

وقوله عليه السلام : (يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فانى أتوب فى اليوم مائة مرة) (٣) .

إن الأنبياء يرسمون الطريق للانسانية وهم هداتها وقدوتها ولكن الله عصمهم من المعصية .. وجنبهم الذلل .. فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإذا كنا قد رأينا هذا الإخلاص الدافق وتلك الرفعة الإنسانية فيما بذله

---

(١) سورة التوبة ٩/١١٨ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ورأينا تلك الدعوات المخلصة التي تطلب من الله القبول وترجو منه الثبات على الحق وتسأله أن يبقى الإسلام فى ذريتهما ، فلا بد أن نتساءل : ومن تكون ذرية ابراهيم واسماعيل ؟ لقد كان لابراهيم اسماعيل ، وكان له من بعد اسماعيل اسحاق ، ومن اسماعيل كان الجزء الأعظم من أمة العرب ، ومن اسحاق كان يعقوب ، وسائر أنبياء بنى اسرائيل من يعقوب . .(١)

لكن هنا حول البيت كان ابراهيم واسماعيل يبذلان جهداً مضنياً ليرفعا القواعد من البيت ويقولان : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . فمن تكون هذه الأمة غير الأمة العربية ، ولهذه الأمة كانت دعوتهما . « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . . »

وكأنهما نظرا بمنظار الغيب فتجمع الوجود كله أمامهما وكشف لهما الحق أسرار ما سيجرى فيه فوجدا حماة هذا البيت وسدنته قد انحرفوا عن الهداية الإلهية والدين الحنيف ووقعوا فى جاهلية عمياء : سرت فيهم منافذ النظر الصحيح فبدا الحق باطلا ، والظلام نوراً ، والجهل علما ، والضلالة هداية .. وأبصر هذان الرسولان الكريمان تلك الأمة تسجد للأصنام وتتمرغ فى أوحال الشرك وأقذار الشهوات ، والفراغ النفسي والعقلى والروحى ، فمن ينقذها من ذلك ؟ ومن يأخذ بيدها الى الطريق الصحيح ؟ واذا كان حماة البيت وأهله قد وصل حالهم الى هذا الضياع فما بالك بأمم الأرض التي لم يصل اليها شعاع الوحى فعاشت فى العمى والجهل . . من إذن ، لهذا العالم المكروب المكدود ؟ من للانسانية إذا خبا ضوء التوحيد من حول أول بيت وضع للناس ؟ فليواصل ابراهيم واسماعيل دعاءها وابتهالها الخاشع لربهما ،

---

(١) فاسرائيل كلمة مركبة من « إسر » أي عبد ، و « إيل » أي الله ومعناها : عبد الله وهذا هو يعقوب عليه السلام ، فأبناء يعقوب أو أبناء إسرائيل أو بنى إسرائيل كلها بمعنى واحد .

فليسألاه بحق ربوبيته وكرمه وفضله كما سألاه بذلك في كل دعاء .. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »

وكم في تلك الاستغاثة والضراعه من معان وأسرار وأنوار : انها تبدأ بنداء خاشع ودعاء ضارع يفتح الأبواب المغلقة .. وهل يغلق باب أمام من يقول : يارب ؟؟ وهل يرد من يطرق باب سيده ومولاه معترفاً بما له من أفضال وما عنده من عظيم الكرم ووافر البركات والرحمات ؟ وهذا ما فعلاه حين قالا : ربنا .. ربنا .. ربنا .. ولكنهما في هذه النفثة الأخيرة وصلا إلى أوج دعائهما وإبتهالهما فقالا : وابعث فيهم رسولا منهم .. فاستجاب الله دعاءهما وبعث محمداً ﷺ في العرب من العرب أنفسهم رسولا فيهم لكنـــه رسول للانسانية جمعاء :

« قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً : (١) « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .. »(٢) وهو رسول منهم ليس غريباً عنهم حتى يسلس له قيادهم ويأخذ بأيديهم إلى طريق الله ، وهذا الرسول العظيم « يتلوا عليهم آياتك .. » وتلاوة آيات الله رضا من الله وتفضل منه سبحانه .. يرسل من خلقه رسولا ليخاطبنا نحن العبيد الضعاف ـ بآياته ؟؟ إنه لإله رحيم بخلقه ؟ .

وهذا الرسول : يعلمهم الكتاب والحكمة .: لقد رأى إبراهيم وإسماعيل أمة جاهلة طائشة في تصرفاتها لا تحكمها شريعة هادية ولا يرشدها مرشد كريم ، فطلبا من الله أن يكون المبعوث فيهم منقذاً لهم من هذا الشقاء يتلوا على أسماعهم ما أنزل الله ويعلمهم الكتاب والحكمة .. فلا يكتفي بمجرد تلاوة آيات الله ، إنما يعلمهم الكتاب ويشرح لهم ما فيه ويبين لهم أحكامه ، ويوضح لهم ما لم يعرفوه .. (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون)(٣)

---

(١) سورة الأعراف ٧ ١٥٨ .

(٢) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧ .

(٣) سورة النحل ١٦/٤٤

ويعلمهم مع الكتاب الحكمة . وهى الإصابة فى القول والعمل ، ووضع كل شي موضعه : أو هى كما قيل : المعرفة بالدين ، والفقه فى التأويل ، والفهم للشريعة ، وهذا هو أساس الإصابة فى كل قول وعمل : ولا عجب أن يخرج محمد ﷺ من رعاة الأغنام رعاة أمم ، ومن الجهال علماء ، ومن الفوضى والهمجية والإندفاع حكماء : دان لهم العالم وأسلم لهم قياده فأخذوا بيده إلى شاطىء الأمان ، وأنقذوه من الدمار النفسي والإجتماعى والإنسانى فعاش حياة ملؤها السعادة والرضا والسكينة والهدوء . . ومن صفات هذا الرسول أنه : (يزكيهم . .) والكلمة توحى بما سيصير إليه أمرهم حتي يأتى هذا الرسول فيزكيهم . . ولقد إنكشف هذا الغيب بعد إبراهيم وإسماعيل فكانت الأمة العربية فى حال من الفساد الخلقى والإجتماعى والسياسى والدينى هز كيانها وهدد وجودها مما لايتسع المقام لذكره . . ومنه ما قاله جعفر بن أبى طالب بين يدى نجاشى الحبشة ، أيها الملك كنا قوماً أقل جاهلية: نعبد الأصنام ؟ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . . إلخ ماقال. . فطهرهم رسول الله وإرتفع بأخلاقهم إلى المقام الأعلى فصاروا مضرب المثل فى كل خلق كريم .

والله إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .(١) . . وكل أمره حكمة . . لذا كان ختام دعاء ابراهيم واسماعيل : انك أنت العزيز الحكيم . .

وما أعظمهما من دعوات طاهرات . . وما أكرمها من ضراعات وابتهالات . .

---

(١) سورة يوسف ١٢/٢١ .

الفصل الرابع

دعاء ابراهيم لمكة وأهلها

قال تعالى : وإذا قال ابراهيم رب إجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر ، فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . (سورة البقرة ٢/١٣٦)

وقال تعالى . وإذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . (سورة ابراهيم ١٤/٣٥—٣٦)

هذا مادعا به ابراهيم عليه السلام لمكة وأهلها ، وهو دعاء جدير بالتأمل ، لذا أمر المولى سبحانه رسوله محمدا ﷺ أن يذكر هذا وأن يذكر به فقال : وإذ قال ابراهيم .. أي واذكر يارسول الله ما قال ابراهيم لترد على دعاة الشرك وأهل الباطل الذين ينتسبون لهذا النبي بأنه كان على صلة بربه وأنه دعا بهذا الدعاء فقال : رب إجعل هذا بلداً آمناً .. وهو — كعادته في دوام التضرع يبدأ باعلان أن من يناديه هو المربي لهذا الوجود ، ولاحساس إبراهيم بتدبير الله لكل أمره يضيف هذه الربوبية لنفسه فيقول : رب ، فماذا تطلب يا إبراهيم قال : اجعل هذا بلداً آمناً ، وفي سورة إبراهيم قال : (رب اجعل هذا البلد آمناً) والبلد هنا مكة تلك التي حرمها الله يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لكن ابراهيم يرجو من الله دوام هـذا الأمان ، فانه واسماعيل كانا مسلمين ومع ذلك قالا : ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ودوام هذا الأمان الذى ثبت في علم الله من الأزل يراه ابراهيم قرين الحياة الهادئة المطمئنة . وذلك حين جاء بزوجه وابنه إلى هذا المكان فلم يجد أنيساً . ولم ينظر رفيقاً إلا ما تعوده من أنسه بربه ورعايته له فدعا ربه أن يجعل هذا

المكان القفر الموحش بلداً آمناً ، ولم يغفل ابراهيم عن تكرار هـذا المطلب وذلك بعد أن رفـع القواعد من البيت واسماعيل ، ونظر فوجد قبيلة جرهم ، ورأى أنساً واجتماعاً من حول بيت الله فقال : رب أجعل هذا البلد آمناً ، ومما يزيد هذا المعنى وضوحا أنه قال فى آخر دعائه : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء » .

ولعلنا نذكر ما قلناه فى قوله سبحانه : فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً » .. وقيمة هذا الأمان وأثره فى مسيرة الحياة وأنه إذا ذهب الأمان ذهبت معه الحياة ، ولم يبق لهـا طعم ولم تعد فيهـا سعادة ، وهنا يرجو ابراهيم من ربه : أماناً عاماً شاملا لا لمن فى البيت الحرام فحسب إنما لكل من فى البلد الحرام ، وهـذا ما يؤيده قول رسولنا الكريم ﷺ حين حرم المدينة ودعا لأهلها كما حرم ابراهيم مكة ودعاً لأهلها فيما رواه مسلم فقال : اللهم إن ابراهيم حرم مكة فجعلها حراماً وإنى حرمت المدينة .. حرام ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبط فيها شجر إلا لعلف ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين . .

والمطلب الثانى فى دعاء ابراهيم : وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. وكأن ابراهيم رأى أن الرزق كالإمامة التي طلبها لذريته فقال له ربه : لا ينال عهدى الظالمين .. فجعل الرزق قاصراً على من آمن بالله واليوم الآخر فبين له الإله الرحيم بخلقه : أن الرزق غير الإمامة يشمل البر والفاجر قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير .

وهذه الحقيقة يؤكدها القرآن دائماً فيقول سبحانه : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » [1] .

يقول سبحانه : « قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ،

---

(١) سورة الاسراء ٢٠/١٧

متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » (١) .

ونظرة إلى قوله : « فأمتعه قليلا » .. ترينا أن كل مافى الدنيا متاع قليل ولم لا ؟ وهو عرضة للزوال والفناء ؟ وبعده هذا الذي يذكره القرآن فى شأن من كفر : « ثم أضطره إلى عذاب النار » ..

والفرق بين المتاع الفانى وعذاب النار الذى يندفع إليه الكافر اندفاع المضطر الذي لايجد طريقاً سوى هذا الطريق الصعب ، هو ما تعبر عنه كلمة « ثم » وما تصوره « أضطره » .. فهو مطارد بذنوبه ، نادم على فعله ، لا يجد له مهرباً من عذاب النار ، وياهول هذا المصير ، ويا لتعاسة ويا لشقاء الكافرين ، وبئس المصير . .

نعم هذه دعوة ابراهيم قبل أن يقام بناء البيت ، وتلك دعوته بعد أن أقيم وارتفعت قواعده ، لكنه فى المرة الثانية يقول لمولاه : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » .. فهو يرجو من الله أن يجنبه وأبناءه عبادة الأصنام وأن تبقى هذه الأسرة مسلمة موحدة لا تشرك بالله شيئاً ، وما ذلك إلا لأن عبادة الأصنام متاهة وضلال : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ».

وبما وهب ابراهيم من رقة القلب وسمو النفس يقول : « فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » ..

فمن ينسب لابراهيم حقاً هو من يتبع ملته ، ومن يسير على طريقه : طريق التوحيد والاستسلام المطلق لله .. أما من عصي فان ابراهيم يطلب له الهداية ويرجو له المغفرة والرحمة . .

---

(١) سورة يونس ١٠ ٦٩ ، ٧٠

الباب الثالث

البيت . . دعوة التوحيد

الفصل الأول : بيت أساسه التوحيد . . وعنوانه الطهارة .

الفصل الثانى : بيت : تحن القلوب اليه .

الفصل الثالث : ما فيه من المنافع .

الفصل الرابع : تعظيم حرمات الله وشعائره . . والنهى عن الإشراك وقول الزور .

الفصل الخامس : الذبح باسم الله :

(ا) طريق الإنسانية الصحيح .

(ب) صلته بدعوة التوحيد .

(حـ) المخبتون . . وصفاتهم .

الفصل السادس : البدن :

(ا) كيفية ذبحها .

(ب) ما فيها من حقوق .

(حـ) التقوى هى المطلب الحقيقى من إراقة الدماء .

الفصل الأول

بيت : أساسه التوحيد
وعنوانه الطهارة

قال تعالى «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » .   (سورة الحج ٢٦/٢٢)

وقال تعالى : وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود .   (سورة البقرة ١٢٥/٢)

يدعي مشركو مكة أنهم حماة البيت وحراسه وأنهم ورثة ابراهيم واسماعيل. فهل يليق بمن يدعي هذا أن يصد عن بيت الله أهل الإيمان الصحيح ؟ لقد ارتكب المشركون مالا يليق وجمعوا الى الكفر بالله صدا عن بيته يقول سبحانه: ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم .

فالمسجد الحرام ليس ملكا لمشركي مكة يمنعون منه من يشاءون ويأذنون لمن يشاءون . . انه للناس جميعاً . لمن هم في مكة من أهلها « العاكف » ومن هم بعيدون عنها : «الباد ..» فاذا صد عنه الكفار المؤمنين فقد عدلوا عن القصد وظلموا ظلماً ظاهراً عنيفاً . « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» وهذا ابراهيم عليه السلام الذي ينتمون اليه أقام هذا البيت باذن من الله فعلى أي أساس أقامه ؟ ولمن أقامه ؟

أما أساسه فيكشفه قول الله تعالى : واذا بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا . . فلننظر معا الى هذا الأساس لنتعرف على معالم الحق

فنقيم حياتنا على هذا الأساس الذى أرساه الله . . انه سبحانه يأمر نبيه محمداً أن يذكر هذا لما فيه من تقرير للحقائق ورد على ادعاءات باطلة أثارها المشركون . . فليذكر صلوات الله وسلامه عليه أن الذي بوأ لإبراهيم مكان البيت وأرشده إليه وأذن له فى بناءه هو الله العظيم . . فهل يعبد مع هذا الإله العظيم غيره؟ أو يشرك به سواه ؟؟ ان هذا البيت للانسانية جمعاء مركز اشعاع ينير لها الطريق الى وحدانية الله ، ويرشدها الى صاحب هذا البيت : فيذكر ولا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ولهذا أمر الله ابراهيم أولا أن يقيم بيته على التوحيد المطلق له فقال : أن لا تشرك بى شيئاً . .

وقف معى عند تلك اللمحة القرآنية من كتاب الله : فتقدير العبارة : وقلنا له لا تشرك بى شيئاً .. ولكنه يختصر ذلك لأن مقام التوحيد والنهى عن الإشراك خطير يتطلب أن يعمد اليه مباشرة دون أن يأتى بـ « وقلنا له » وحين نهى عن الشرك قال : « لاتشرك بى » وذلك يعطى صورة كاملة لمن يريد أن يحيا موحداً لربه فان عليه أن يديم المراقبة لنفسه وأن يلاحظ كل مدخل للشياطين حتى لايفسدوا عليه ايمانه بإلهه . وعليه أن يذكر أن هذا الأمر موجه الى أبى الأنبياء صاحب القدم الراسخ فى معرفة الله وتنزيهه عن كل شريك لكنه فى بنائه للبيت يحتاج الى الركائز التي سيقام عليها البناء . وفى قوله لا تشرك بى شيئاً .. » يجب أن نلحظ كلمة « شيئاً .. » فهى تشمل كل مظاهر الوجود بل كل هذا الوجود .

فكل هذا الوجود عابد والإله هو المعبود ، وكله عاجز والله هو القادر ، وكله مربوب والله هو الرب ، فاذا عبد أحد من الناس شجراً أو حجراً أو انساناً أو حيواناً فقد أشرك بالله ، واذا انحرف عن شريعة الله وارتضى له منهجاً سواها واعتقد أن شرائع البشر ومناهجهم أفضل من شريعة ربه ومنهج الخالق العظيم ، فقد أشرك بالله . . فأى شيء . . وان قل — يجب الإحتراس منه حتى لا يقتحم حمى التوحيد فيفسد على المؤمن عقيدته وتوحيده اذا كان هذا هو الأمر الأول . فان الأمر الثاني لإبراهيم أشمل وأعم ، وهو

في الوقت ذاته يبين من يستحق أن يدخل هـذا البيت وأن يكون من حماته وأهله ، ذلك هو قوله سبحانه . « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » .

هذا هو الأمر الثانى فماذا يعنى !! ان التطهير كلمة لهـا ظل خاص ، فهى توحى بأن هناك شيئاً قد أصابته نجاسة ويجب أن يطهر ، والبيت قد دنس بالأصنام كما ورد فى التاريخ أن جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وحوله قبل أن يبنيه ابراهيم .. والشرك رجس ونجس ، نجس فى القلب والشعور ينعكس أثره على كل ما فى الحياة فتبدو الحياة آسنة كريهة ممقوتة ، ورجس يصيب الفطرة فيعميها عن الطريق فاذا بها تتخبط فى الظلام .. فعلى ابراهيم أن يطهر البيت من الأصنام ، بل عليه أن يطهره أيضاً من البدع والأهواء والقاذورات الحسية فيبدو طاهراً ظاهراً وباطناً .. ولم لا يطهر وهو بيت الله ! وأى شرف يناله هذا البيت ! وأى كرامة لمن يكلفه ربه أن يطهر هذا البيت العتيق ..

إن ابراهيم مأمور من قبل الله أن يظهر بالتوحيد في بيت الله وأن يطهر هذا البيت من الأوثان وغيرها ليكون أهلا بالطائفين والقائمين والركع السجود وهؤلاء هم عماره ، وهؤلاء هم زواره ، وهؤلاء هم حماته .. والطواف والصلاة من خصائص بيت الله .. فالناس فى أنحاء الأرض اما أن يطوفوا حوله اذا ما قدموا إليه أو يصلوا متجهين إليه .. والطواف فيه تعظيم للبيت وصاحبه ، والصلاة اليه صلة بالله وبيته مستمرة دائمة . والقرآن يعبر عنها بأهم أركانها من القيام والركوع والسجود ، وكأن كل واحد من هذه الأركان جدير بتطهير البيت له ، فكيف وقد اجتمعت ..

هـذه آية من سـورة الحج أوضحت الأساس الذى أقيم عليـه بيت الله . وبينت : لمن أقيم هذا البيت .

وفي سورة البقرة أمر لابراهيم واسماعيل . « وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . وهذا الأمر لابراهيم

واسماعيل يوحى بأن هذا الأمر كان بعد أن شرعا في بناء البيت تأكيداً لأمر سابق لابراهيم وحده ، أما واسماعيل يشاركه البناء وقد بدأ فعلا فى رفع القواعد فان الله يعهد اليهما ببناء بيته مطهراً من أقذار الشرك ومن كل قذر سوى الشرك حتي يعود بيت الله مستقراً للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فهو لمن يطوف من أهل البلاد ومن يعتكف فيه للعبادة منهم ومن أهل الحرم ، وهو للمصلين المتوجهين الى الله دائما . الركع السجود .

هذا هو بيت الله وتلك هى أسسه من الطهارة والنقاء والتوحيد الخالص .

وهؤلاء هم عماره الذين أقيم لهم هذا البيت . جعلنا الله من عماره وزواره وحماته .

الفصل الثانى

بيت تحن القلوب إليه

قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ». (سورة الحج ٢٢/٢٧)

هذا هو الأمر الثالث لابراهيم عليه السلام : «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر.. يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام » .

وهذا الأمر لابراهيم يحتاج منا الي حسن التأمل والنظر .. فهذا ابراهيم بين جبال مكة قد أقام بيت الله .. يأمره ربه أن يدعو الناس للحج اليه .. فالى كم من الأمتار يصل صوته ، ومن الذي سيسمعه فى هذا المكان المحدود ؟ ولكن ابراهيم العابد لله لابدأن يستجيب للأمر ، ويسأل ابراهيم ومن يبلغ صوتى يارب .. قال : أذن وعلى البلاغ ، فصعد ابراهيم خليل الله جبل أبى قبيس ونادى بأعلى صوته : يأيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم منعذاب النار فحجوه ، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك ، فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة : ان أجاب مرة فمرة ، وان أجاب مرتين فمرتين.. وفىرواية ابنعباس قال ابراهيم : كيف أقول ، قال : قل يأيها الناس ان الله تعالي كتب عليكم الحج الى البيت العتيق ، فسمعه أهل السماء والأرض .. ألا ترى أنهم يجيئون من أقصي البلاد يلبون ؟؟

والناس الذين أذن فيهم ابراهيم بالحج ، هم كل البشر ، ولابد أن نتساءل هنا : هل اكتفى الإسلام الذى أعزنا الله به بمجرد هذا الأذان وقال : ان صوت ابراهيم وصل الى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فلم نحمل السلاح ،

ولم نقاتل الناس على هـذا الدين ؟؟ فلنترك البشر وهم سـيأتون الى بيت الله الحرام مستسلمين طائعين ، فلننتظر عند البيت لنراهم أفواجاً أفواجاً ، من كل فج عميق قد قدموا الينا فى شوق يكبرون ويهللون ويلبون ويدعون ويعلنون أنهم مسلمون ؟ ! هل حدث هذا ؟ أو أن التاريخ يقول : ان أهل الإيمان هم حماة هذا البيت يصنع الله بهم مايريد للناس من خير ، وعليهم أن يحملوا آذان ابراهيم لكل انسان عرفوه على وجه الأرض !

فهل فعلنا ذلك ، نعم فعل المسلمون هذا فى أول عهدهم حين شرقوا وغربوا حتى جاءت وفود الأرض تقول : لبيك اللهم لبيك .. « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » (١).

فلا تكن من هؤلاء الذين أضاعوا الصـلاة واتبعوا الشهوات ، واحمـل دينك وانطلق به فى كل مكان ، وأدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحطم معاقل الظلم التي تعترض طريق نور الله حتى يصل نداء الإسـلام الى شعوب الدنيا فيأتون إليك يلبون النداء .

وقد أراد الله لدعوة ابراهيم أن تصل للعالمين ، وذلك قوله : « يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ..

فحين أذن فى الناس بالحج انطلقت دعوته عبر الزمن من لحظة أن وقف على جبـل أبى قبيس والى أن تقـوم الساعة .. وذلك ما يعبر عنـه : « يأتوك .. ويأتين » فهو اتيان مستمر لاتنقطع أبداً ، ولو كشف الله عن بصيرتنا لرأينا أنه مامن لحظة فى ليل أو نهار الا وهناك متجه لهذا البيت أو من يستعد للقدوم اليه ، أو من يتوجه اليه راكعاً وساجداً ..

ومن يأتى ، انما يأتى لله فى بيته ، لكن الله جعل الإتيان لابراهيم تشريفاً له وتكريماً ، وكأن من أتى البيت أتى ابراهيم ولبى دعوته .

---

(١) سورة مريم ١٩ ٥٩ ، ٦٠

ولنتأمل صورة هؤلاء القادمين للبيت : رجالا وعلى كل ضامر ، رجالا : أى يمشون ، وعلى كل ضامر : أى ركباناً على كل بعير مهزول ، أتعبه بعد الشقه فهزله أو زاد هزاله ، وفى اختيار هذا التعبير « وعلى كل ضامر » بدل « ركباناً » مايدل على ما يتحملونه من مشقات السفر وبعد الديار ؛ أما الذى أتى البيت سيراً على الأقدام فيكفيه ما يلاقيه من صعاب وما يبذله من جهد ؛ ولهذا قدمه القرآن على الراكب ، وهذا مادعا بعض الصادقين فى ايمانهم الى أن يحجوا مشاة أن يتمنوا أن يحجوا مشاة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما أسي على شيء فاتنى الا أنى لم أحج ماشياً حتي أدركني الكبر ، أسمع الله تعالى يقول : يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، فبدأ بالرجال (أى من يأتون على أرجلهم) قبل الركبان .

ولتكتمل تلك الصورة : صورة من أجاب نداء ابراهيم يقول سبحانه : « يأتين من كل فج عميق » فجعل الإتيان للابل وكأنها جاءت تحج أيضاً ، وهو صورة بارعة لإبل جاءت الى بيت الله واشتاقت له فأتت من كل فج عميق أي من كل طريق بعيد ، لكن اختيار كلمة . من كل فج عميق ، لها ايحاءاتها الدالة على كثرة هذه الفجاج وامتدادها الى مسافات بعيدة سحيقة ، وكأنك حين تنظر الى مداخل مكة يهولك ماترى من أمواج البشر التي تتدافع من كل طريق يحدوها شوقها ويدفعها حنينها الى بيت الله الحرام .

الفصــل الثـالث

ما فيه من المنافع

قال تعالى : «... ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام.. فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . (الحج ٢٢/٢٨،٢٩)

هذا ابراهيم قد استجاب لأمر الله وأذن في الناس بالحج فأجاب نداءه كل من كتب له الحج الى يوم القيامة ، ومن يوم أن أذن ، والأشواق تدفع الناس فى بلاد الله لشد الرحال اليه . يأتون رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق .. فلماذا قدمت هذه الأفواج من كل بقاع الأرض ! !

يقول الحق تبارك وتعالى : ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ..

فى هذه المنافع التى جعلها الله فى الحج ودعا الناس ليشهدوها من عهد ابراهيم الى عهد محمد عليهما السلام ، انها منافع الدنيا والآخرة . ومنافع الدنيا تبع لمنافع الآخرة ، فالحج هو الطواف والسعى والوقوف بعرفة ، والمزدلفة ونحر الهدى وسائر مناسك الحج ، ويدخل فيها منافع الدنيا على وجه التبع . والرخصة فيها دون أن تكون هى المقصودة بالحج فقد قال الله تعالى . « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم »(١) .

فجعل ذلك رخصة فى التجارة فى الحج ..

---

(١) سورة البقرة ٢/١٩٨ .

ويروى عن ابن عباس قال . أتانى رجل فقال . انى آجرت نفسى من قوم على أن أخدمهم ويحجون بى فهل لى من حج ؛ فقال ابن عباس . هذا من الذين قال الله تعالى ؛ « لهم نصيب مما كسبوا » .. وعنه أيضاً في قوله ؛ ليشهدوا منافع لهم . قال ؛ منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة . فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ؛ وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات .

واذا أمعنت النظر فى قوله تعالى ؛ « ليشهدوا منافع لهم » ستجد أن كلمة « منافع » تشير الى أنها كثيرة العدد . عظيمة الأثر . وكلمة « لهم » توحى بأن الفائدة عائدة لحجاج بيت الله . فبذلهم وتعبهم له ما يقابله من منافع الدنيا والآخرة . والمشاهدة — وهى لاتكون الا فى أمر عظيم — تدفع الى سرعة إجابة دعوة ابراهيم عليه السلام . كما أنها تدل على قيمة هذه المنافع التى أراد الله للناس أن يشهدوها .

وأول تلك المنافع تبدأ من لحظة توجه القلب لأداء الفريضة . والقلب إذا توجه لمثل ذلك اعتدل على طريق الحق . وتلك هى السعادة كل السعادة . وبعد أن يتوجه القلب يستخير المسلم ربه . وفى ذلك منافع . ويستشير أصحابه . ويقضى ديونه . ويرد ما للناس عليه من حقوق ويستعد للسفر . ويودع الأهل والأحباب . وهو بذلك يذكر يوم الوداع الأكبر . ويوم السفر الأعظم . ويتجرد من ملابسه وزينته عند الميقات ليلبس ملابس الإحرام . وفى هذا مساواة الإسلام وأدبه . وفيه التجرد من زينة الحياة الدنيا للقدوم على الله . وفى دخوله مكة ؛ حرم الله . وفى الطواف حول البيت والصلاة فى مقام ابراهيم وحجر اسماعيل والسعى بين الصفا والمروة وما فى ذلك من تذكر لماضى المجاهدين وتربية على خلق الإسلام العظيم .

منافع . وأى منافع . وفى الوقوف بعرفات ؛ تذكير بيوم الحشر . وهو يوم رهيب . أظلنا الكريم تحت ظل عرشه فى هذا الوقت العصيب ..

ولنواصل رحلتنا لنشاهد المنافع فى رمى الجمار ونحر الهدى وطواف الإفاضة

وطواف الوداع وما تأخذه لأهلك وولدك من هدايا وما ينتفع به التجار والصناع والزراع . وما يعود على المسلمين بالخير حين يلبون ويدعون ويقفون صفاً واحداً وجمعاً واحداً أكرمهم عند الله أتقاهم . فيعودون بهذه المنافع لبلادهم . والحق رائدهم . والله مطلبهم . والإخلاص سلوكهم . والوحدة منهجم . والعمل من أجل دينهم غايتهم . ولو ذهبنا نستقصي ما فى كل منسك وكل شعيرة من المنافع لطال بنا الحديث .. ويجمعها كلها قول الحق سبحانه . ليشهدوا منافع لهم .

واذا كان شهود المنافع غاية من فريضة الحج فان من غاياته أيضاً ومن منافعه أيضاً ماذكره الله بقوله ، « ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام » فما هى هذه الأيام المعلومات ..

أكثر العلماء على أنها عشر ذى الحجة ، والمعدودات ، أيام التشريق ، وسميت بذلك لأنها معلومة عند الناس لحرصهم على العلم بها لأن فى أواخرها الوقوف بعرفة ويوم الحج الأكبر . والعمل فى تلك الأيام العشر له منزلة خاصة روى البخارى بسنده عن أبى عباس عن النبى ﷺ قال . ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه . قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء » .

وعن ابن عمر قال . قال رسول الله ﷺ . ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد » (١) .

وهى العشر التى أقسم الله بها فى قوله . « والفجر وليال عشر » ولا تنسى أن فى هذه العشر يوم عرفة . وقد روى الإمام مسلم عن أبى قتادة قال . سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال . احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية . وفيها أيضاً يوم النحر وقد ورد أنه أفضل الأيام عند الله .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

فإذا ماندب الله الناس ليذكروا اسم الله فى هــذه الأيام المباركة وفى تلك البقاع الطاهرة ، فانما هو الفيض الإلهى يفيضه على خلقه دائماً .

ولنتوقف عند قوله : « على مايرزقهم من بهيمة الأنعام » لنعرف أن مايذبح رزق من الله ، فالانفاق منه إنفاق من مال الله وفضل بالله ، وأن بهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم . وأن ذكر اسم الله عليها أمر له دلالته ولا يمكن التهاون فيه ، ولذا خاض الإسلام معركة حامية الوطيس مع المشركين ، وكان مما قال . « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » (١).

ومما قاله أيضاً ما سيأتى تفصيله بعد فى سورة الحج حيث قال سبحانه . « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين » (٢).

وحيث قال . « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ، وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » (٣).

كثير من الآيات تهاجم المشركين وتسفه آراءهم فى هذا المقام ، فهل لذلك من أثر فى واقع الحياة ، هل يتأثر اللحم المذبوح بذكر اسم الله أو عدم ذكره ما هو مفهوم الإسلام لذكر اسم الله على مايذبح ، وبالتالى ماهو مفهومه لحقيقة الحياة والأحياء .

إن الاسلام كل متكامل ، ومنهجه للحيــاة منهج متكامل ، يتلخص هــذا المنهج فى أن الحياة فى ظاهرها وباطنها ملك لله ، والإنسان مستخلف فيها باسم الله ، فاذا تنكر لله ورفض أن يرفع اسمه على شيء مما فى هذه الحياة فقد تنكر

(١) سورة الأنعام ٦ ١٢١ .

(٢ ، ٣) سورة الحج ٢٣/٢٤ ، ٦٧

لولى النعمة ، وخرج عن حدود الأدب وأصبح شيطاناً رجيماً ، ولذلك يقول الله تعالى . « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

ويجعل طاعة المؤمنين لأولياء الشياطين إشراكا به فيقول . « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

فالذكر على مايذبح — اذن — لا علاقة له باللحم أو الدم أو العظم انما علاقته فى تحديد صلة الإنسان بخالق هذا الوجود ، وأن الشيء الذى لم يذكر اسم الله عليه فسق لا يصح أن يأكل منه ، فكأنه اضراب من أهل الايمان عما لا يتوجه به لله ، ومفاصلة بين المؤمنين والكافرين فى واقع الحياة . المؤمنون ملتزمون بمنهج الله فى أن الحياة ، فى كل أحوالها ومظاهرها يجب أن يرفع عليها علم العبودية لله ، والكافرون ملتزمون بايحاء الشياطين وأن الحياة محكومة بالهوى والحماقة البشرية والضعف الانسانى والظلم والظلمات والانقياد بعيداً عن الله الى آلهة مدعاة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

والأيام المعلومات فرصة ليعمق المسلمون فيها حقيقة المنهج الإلهى ، ويذكروا دائماً فى تلك الأيام المشرقة برضا الكريم اسم الله على ما يذبحون ، فيصدروا عن الحج وقد امتلأت نفوسهم ثقة فى خالقهم ورازقهم وارتبطوا بمنهجه الذى لايضل ، وطريقته التى يشع منها الأمان وتفيض منها السعادة ، وعليهم أن يعرفوا أنه اذا كان عدم ذكر اسم الله على ماقدموا من هدى وما نحروا من أضحية أدى الى الخروج عن الاسلام والايمان فكيف ومجرى حياتهم كلها محكوم بغير حكم الله .

وأن دينهم تقلص فلم يبق منه الا فرائض العبادات وبعض قوانين الأحوال الشخصية ، وكأن المسلمين فى بلادهم يعيشون غرباء ، فلهم قوانين للاحوال الشخصية ، أما حكم الاسلام للحياة ، أما توجيهه لسياسة السلم والحرب ، أما قيمه الرفيعة ، أما اسم الله الذى يجب أن يذكر مع كل لمحة واشارة ، ومع كل قول أو عمل ، ومع كل صغيرة وكبيرة فانه يحتاج إلى شجاعة المؤمنين

وبذلهم ليرفع اسم خالقهم على تلك الحياة فتطهر من أرجاس الجاهلية وأقذارها وتعود — باسم الله — آمنة مطمئنة لا تعرف لها سواه ربا ، ولا ترضى بغيره الهاً ، ولا تطلب غير كتابه دستوراً ، ولا تترك أمرها للشياطين فيكون لها الهلاك والبوار والخسران المبين .

فاذا نحرت هديك أو أضحيتك فاستقبل القبلة وقل باسم الله . الله أكبر اللهم منك واليك ، ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين . واستحضر فى ذهنك حال أبيك ابراهيم حين هم بذبح اسماعيل تنفيذاً لأمر الله ، ففدى الله اسماعيل بذبح عظيم . وأنت مطالب ببذل نفسك ودمك لربك ولكنك تتقدم بشاتك بدل مهجتك طلباً لمرضاته وشكراً له على عظيم عطائه ، وبعد أن أرقت الدم باسم الله يقول لك مولاك : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

وتلك هى حضارة الاسلام وقيمه الخالدة التى تبدو فى الاحساس بحاجة البؤساء والفقراء ومشاركتهم فيما يأكلون ، وهنا تبدو مساواة الاسلام واقعاً حياً ، وعدالته الاجتماعية طريقاً واضحاً ، لامهاترات ولاشعارات ولا عناوين براقة كما هو الشأن فى أمم انحرفت عن هدى الله وهدى رسوله .

والأمر هنا « فكلوا » . للاباحة فقد كان أهل الجاهلية يتحرجون من الأكل علواً وافتخاراً على الفقراء ، فأباح الله للمؤمنين ذلك ، فلا حرج عليك أن تأكل أو تدع .

وقد استحب الفقهاء أن يأكل المضحي والمهدي من لحم ما ضحى أو أهدى اقتداء برسول الله ﷺ ، فقد ثبت عنه أنه عليه السلام لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها ، وقال عبد الله بن وهب : قال لى مالك : أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول : فكلوا منها ، قال ابن وهب : وسألت الليث فقال لى مثل ذلك ، الا أن مشهور مذهب مالك رضي الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين ، وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك اذا بلغ محله واجباً كان أو تطوعاً ، ووافقه جماعة من السلف وفقهاء الأنصار . وعند الشافعى وأبى ثور : ما كان

من الهدى أصله واجباً فلا يأكل منه ، وما كان تطوعا أو نسكا أكل منه وأهدى وأدخر وتصدق ، والمتعة والقران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعى ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هدى المتعة والتطوع ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الاحرام .

هذا هو الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه وما فيه من منافع ، والأمر الثانى الملازم له : اطعام البائس الفقير .. والبائس : هو الذى أصابته شدة ومحنة من شدائد الزمن ومحن الأيام وان لم يكن فقيراً ، والفقير هو من لا يجد شيئاً على الاطلاق فهو يحتاج شديد الاحتياج ، فاذا اجتمع البؤس والفقر بدا الإنسان فى صورة تستحق الإشفاق وتستدعى العون السريع ، ومجتمع الإسلام لا يترك هذه الصورة المعتمة أبداً ، انما يتكاتف ويتعاون ليغيرها مندفعاً فى ذلك بصدق الإيمان وشفافية الإخلاص التى تتأثر بمنظر بائس فقير .

والاطعام هنا لون من ألوان التكافل الاجتماعى ومنهج من مناهج الإسلام فى ربط الإنسان بأخيه الإنسان فى رفق ومودة واخاء ، دون من أى أذى ، علينا اذن أن نلبى نداء أبينا ابراهيم عليه السلام لنشهد هذه المنافع ولنذكر اسم الله فى أيام ذى الحجة المباركة على مارزقنا من بهيمة الأنعام ولنشارك الفقراء فى الأكل مما أهدينا ونحرنا . ولنطعمهم لنذهب بؤسهم وفقرهم فلعل الله أن يتقبل منا وأن يجزل لنا العطاء .

واذا كان هذا هو الأمر الأول والأمر الثانى فقد بقيت أوامر ثلاث نقرؤها فى قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق . فماذا تعنى هذه الأوامر الثلاثة !!

أما التفث : فهو مايحصل للمحرم من طول الشعر والظفر مما هو ممنوع منه نظراً لتجرده وتشبهه بموقف الحشر وبعده فى أيام الإحرام عن مظاهر الزينة وقضاء التفث : ازالته ، فالمعنى اذن ليزيلوا ماعليهم من آثار البعد عن التزين والتجمل وذلك بحلق الشعر أو تقصيره ، وتقليم الأظفار ونتف الإبط وخلع ملابس الإحرام وغير ذلك ..

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : التفث : النسك كلمة من الوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، والقضاء — على هذا — بمعنى الأداء وكأنه قيل : ثم ليؤدوا نسكهم ، وهو كما قال ابن عباس : التفث : المناسك كلها ، وهذا كله قريب من الأول ، فان الإنسان لا يتحلل من إحرامه إلا بعد قضاء المناسك أو معظمها .

ولا تعجب من مظهر المحرم وأمر الله له بالابتعاد عن زينة الدنيا ، فقد قيل لبعض الصالحين : ما المعنى فى شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الاعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته .

والأمر الثانى من الأوامر الثلاثة : وليوفوا نذورهم ، فيه يقول سفيان الثورى رضي الله عنه : إنه نذور الحج ، فكل من دخل للحج فعليه من العمل فيه : الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، وعرفة والمزدلفة ، ورمى الجمار على ما أمروا به وكأن مناسك الحج لزمت عتق الإنسان المسلم لزوم النذر لصاحبه فأصبحت واجبة الوفاء ، والكلمة مع ذلك يبقى لها ظل خاص ، فهى توحى براحة النفس وانشراح الصدر حين يتحلل المؤمن من إحرامه بعد أن يكون قد أدى ما أوجبه الله عليه ، شأن المدين إذا أدى ما عليه من دين ، وشأن من نذر وألزم عنقه أمراً لابد فيه من الوفاء ، فلما وفى بنذره أحس بفضل الله الذي وفقه وأعانه ، وشعر بالرضا يغمر كيانه ، وتلك سعادة أهل الايمان حين يبذلون ويؤدون ما عليهم من واجبات .

أما الأمر الثالث : فهو قوله سبحانه : « وليطوفوا بالبيت العتيق » .. فما هو البيت العتيق ؟ ولماذا سمي بذلك ؟ إنه بيت الله الحرام الذى تشد إليه الرحال .. وقد سماه الله بالعتيق لأنه أول بيت وضع للناس فى هذه الأرض فهو قديم قدم هذه الحياة ، وعتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار من يوم أن أوجده سبحانه وإلى آخر الزمان إن شاء الله .. وعتيق : لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من النار . .

وهذا البيت هو الذى أمرك ربك بالطواف حوله لتحظى بالشرف الأكبر والحظ الأوفر .

والطواف أنواع أربعة : طواف القدوم إذا دخلت الحرم المكى ، وهو ليس بركن ولا واجب ، وطواف الإفاضة، وهو طواف الركن ، وهو المقصود فى قوله تعالى : «وليطوفوا بالبيت العتيق». وطواف الوداع، وهو سنة لا يجب بتركه شيء عند مالك والشافعى وداود وابن المنذر ، وواجب يلزم بتركه دم : وهو قول أبى حنيفة والامام أحمد ورواية عن الشافعى ، أما الطواف الرابع فهو طواف التطوع ، وينبغى للحاج أن يغتنم فرصة وجوده بمكة ويكثر من طواف التطوع والصلاة فى المسجد الحرام .

فابدأ طوافك مضطبعا (١) محاذيا الحجر الأسود مقبلا له أو مستلماً أو مشيراً إليه كيفما أمكنك جاعلا البيت عن يسارك قائلا : بسم الله الله أكبر ، اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك ﷺ . . فاذا أخذت فى الطواف فمن المستحب فى طواف القدوم أن تسرع المشى وأن تقارب الخطا مقترباً من الكعبة فى الأشواط الثلاثة الأولى وهو ما يعرف « بالرمل » . ويمشي مشياً عادياً فى الأشواط الأربعة الباقية ، ومن المستحب لك أن تستلم الركن اليمانى وأن تقبل الحجر الأسود ، أو تستلمه فى كل شوط من الأشواط السبعة ، ومن المستحب كذلك أن تكثر من الذكر والدعاء ، ولا تتقيد بشيء مما يردده المطوفون ، وقل فى الطواف عند كل شوط : رب اغفر وارحم ، واعف عما تعلم وأنت الأعز الأكرم . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول بين الركنين : « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، وأخلف على كل غائبة بخير ».

---

(١) الاضطباع : كشف ضبع الرجل أى كتفه الأيمن بأن يجعل طرف ردائه تحت إبطه الأيمن وبعضه على عاتقه الأيسر، وهو خاص بطواف القدوم ولا يسن إلا عند إرادة الطواف لا كما يفعله العوام من حين يحرمون .

وأعلم أنك فى ضيافه الرحمن وأن الله ينزل رحماته وبركاته فى هذا الجمع الكبير وهذا المقام العظيم ، وتذكر وأنت تقبل الحجر أن رسولك ﷺ أستلم هذا الحجر ووضع عليه شفتيه مقبلا وبكى طويلا ، فاذا عمر يبكى طويلا ، فقال عليه السلام : يا عمر هنا تسكب العبرات ، فاذا فرغت من طوافك فصل ركعتين عند مقام ابراهيم ، فعن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعاً وأتى المقام فقرأ : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » فصلى خلف المقام ثم أتى الحجر فاستلمه .

وإذا طفت طواف الوداع فقف عند الملتزم (وهو ما بين الركن والباب) وأدع ربك كثيراً ويستحب أن تدعو بما أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما فتقول : اللهم إنى عبـــدك وابن أمتك حملتنى على ماسخرت لى من خلقك ، وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى — بنعمتك — إلى بيتك ، وأعنتنى على أداء نسكى ، فان كنت رضيت عنى فازددعني رضا ، وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى ، فهذا أوان انصرافى — إن أذنت لى — غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى ، والعصمة فى دينى ، وأحسن منقلبى ، وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى ، وأجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة « إنك على كل شيء قدير » أرأيت هـذه المنافع وتلك البركات التي أفاضها الله على حجاج بيتـه وزواره ؟ إنها منافع فى الدنيا والآخرة . وبركات من الله ونفحات ورحمات .. وتلك هى التى يجب أن يستهان من أجلها بكل صعب .. ومن أجلها ترى الناس يأتون رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

الفصل الرابع

تعظيم حرمات الله وشعائره

والنهي عن الاشراك وقول الزور

قال تعالي : « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » . (الحج ٢٢/٣٠—٣٣)

إن الإله العظيم الذى أمر ابراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج ليشهدوا منافع لهم أراد بنا خيراً ، شأنه فى كل مافرض وشرع ، لذا تراه بعد أن بين مايجب علينا فى أداء شعائر الحج يقول : « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . فلتقف عند هذه الإشارة « ذلك » ولتعرف حرمات الله كيف تعظم ، وما فى ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

فالإشارة إلى بناء البيت وما بعده من أذان ابراهيم وشهود المنافع وذكر اسم الله فى الأيام المعلومات على بهيمة الأنعام ، وإطعام البائس الفقير ، وقضاء التفث والوفاء بالنذر وطواف الزيارة للبيت العتيق .. وكل واحد من هذه يشع من أفقه الخير العميم وتفيض من جنباته معانى العظمة والرفعة التي أرادها الله لبنى الإنسان .. وكل واحد منها جدير أن يشار إليه « بذلك » .

وحرمات الله : هى كل ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه .. وقال

مجاهد : الحرمات : مكة والحج والعمرة وما نهي الله عنه من معاصيه كلها ، وتعظيم هذه الحرمات : أن تشعر في نفسك بمالها من إجلال وما في انتهاكها من اعتداء على حق الله وخروج على شريعة الله ، فيدفعك هـذا الشعور إلى الامتثال والطاعة والبعد عما حرم الله : خوفا منه وتعظيما لأمره ، فاذا ما كان هـذا الامتثال فى تعظيم مكة والبيت المبارك وقضاء المناسك وجب أن يكون أمتثالا لا يعتريه شك ولا تخالطه شبهة ، ووجب أن يكون الإحساس المرهف بعظمة الإله وعظمة ما شرع من مناسك هو رائد الإنسان المسلم .

ولهذا التعظيم وذلك الأمتثال آثاره الطيبة التي تعود على المؤمن بالخير والبركة ولذلك يقول سبحانه : « فهو خير له عند ربه » . إنه خير ثابت دائم لأنه من عند الكريم ، وخير مرتبط بتعظيم حرمات الله ، وعلى قدر تعظيمك يكون مالك من الخير فى الدنيا والآخرة ، إنه خير عميم يحيط بالمؤمن فى كل حالاته ولم لا ؟ وهو خير له عند ربه ، وقد تعودنا من ربنا كرماً وفضلا وجوداً وعطاء وإذا كان هذا من عند الإله المربى فانه يتناسب مع قدره سبحانه : والعطية على قدر المعطى ، فاذا وهب وزير ووهب رئيس وملك أدركت أن هدية الرئيس والملك أعظم من هدية الوزير ، وهدية الوزير تكون أكبر وأعظم من هدية من هم دونه فى المرتبة .. وهكذا ، فان كان هـذا الخير من عند الله فهو خير ليس له حدود أو قيود .. إنه يشمل الدنيا والآخرة ويساير الانسان فى جميع حركاته وسكناته .

ولما كان ذبح الهدى من شعائر الحج ، ولما كان تحريم الصيد على المحرم مما يوهم تحريم ذبح بهيمه الأنعام ، بين الله أن ذبحها حلال ، وبين ما أحله فيها فقال : « وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ..

أى : وأحل لكم أكلها إلا ما يتلى عليكم حكم تحريمه فى قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة » (أى التى ماتت من شده الضرب) والمتردية (وهى التى تقع من مكان مرتفع فتموت) والنطيحة (وهى التى تنطحها أخرى فتموت من النطاح)

وما أكل السبع (أى ما قتلته بعض سباع الوحوش كالأسد والذئب) إلا ماذكيتم (مما يمكن أن تذبحوه وتأكلوه) وماذبح على النصب [1] (أى مايذبحه المشركون تقربا للأوثان) فكل ذلك حرام أكله .

وأمر آخر ملازم للذبح هو الاحتفاظ بعقيدة الإسلام نقية من كل شرك منزهة عن كل رجس ، ولذلك يقول سبحانه : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

ولنتدبر هذا النهي عن الإشراك بالله بعد بيان ما أحل وماحرم من الأنعام فان الأنعام لاتحل دون أن يرفع عليها شعار الإسـلام : بسم الله ، الله أكبر ، ومع ذلك ، مع إعلان هذه التسمية فان أمر التوحيد يحتاج إلى ملاحظة ومراقبة وهذا ما يعبر عنه قوله : « فاجتنبوا » فان الإجتناب : ترك مع حذر وملاحظة وابتعاد مع تحرز وتمحيص ، والإجتناب : لعبادة الأوثان أو التقرب إليها أو الذبح عندها ، ولكن الله يقول : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

والرجس هو النجس ، فكأنه قال : ابتعدوا عن طريق النجاسة واتركوه جانباً واحذروا الوقوع فيه ، وهذا الرجس والنجس الذى وصل إلى منتهاه يتجمع كله فى الأوثان ، قال القرطبي : الوثن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً ، وقال عدى بن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنق صليب من ذهب فقال : ألق هذا الوثن عنك ، أى الصليب ، وسمى الصنم وثناً لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه » [2] .

أرأيت مافى الأوثان من خطر على عقيدتك وإيمانك ، وما فيها من رجس ورجز ونجس ؟ إنها نجس فى التصرف ، ونجس فى الشعور والإدراك ، وأذى يصيب صاحبه ويصيب الناس جميعاً ، فيلوث معانى الشرف والنبل والطهر

(١) سورة المائدة ٥/٣
(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٤

والرفعة والسماحة وكل ما ينبعث من الإيمان بالله من تلك المعانى الغالية الطاهرة وكما أن الثوب إذا تنجس لا يطهر إلا بالماء ، فالقلب كذلك إذا تنجس بالشرك لا يطهر إلا بالإيمان ، وفرق بين النجس والطهر والرجز والنعيم ، والضعة والرفعه ، والشقاء والسعادة ، لقد بدت عقيدة التوحيد فى أمر خاص هو ذكر اسم الله على ما يذبح إعلانا من أهل الإيمان عن تحـــديد وجهتهم فى الحياة ، وانطلقت عقيدتهم طاهرة نقية مبتعدة عن النجس والرجس وعبادة الأوثان والأصنام ، ولم تعرف لها إلا الله رباً وكتابه دليلا ونبيه رسولا ، ففاض طهرها ونقاؤها على العالمين فسعد الإنسان فى كل مكان بهذا الرحاب الطاهر ، واستمتع بطهر الخلق والسلوك والقلب والعقل الذى حمله أهل التوحيد ، أهل الطهارة والنقاء .

والقرآن كما يأمر باجتناب الرجس من الأوثان يأمر أيضاً باجتناب قول الزور ، وهما أمران متلازمان في القرآن والسنة ، ولم لا ؟ والشرك : زور وبهتان وانحراف عن هدى الله ، وقول الزور : ضعف بشرى ، يوحى بفقد الثقة فيما عند الله والتماس الخير عند الخالق ، ويوحي بضعف الإيمان أو فقده حين يتوجه العبد بقوله وفعله لمرضاة الناس ، وفى قول الزور افتراء على الله ، وقد كانت الكفرة تحرم البحيرة والسائبة ونحوها وتدعي أن الله قد حكم بذلك (والبحيرة : هى التى تشق أذنها ويمنع درها لطواغيتهم وآلهتهم فلا يحتلبها أحد من الناس) ، (والسائبة : هى التى يسيبونها لآلهتهم فلا تحبس عن رعى ولا ماء) .

وفي قول الزور كما فى الشرك : هدم للمجتمعات وقضاء على أمنها ، وقلب لحقائق الحياة .

لهذا قال ﷺ لأصحابه : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يارسول الله الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور . فمازال يكررها حتى قالوا : ليته سكت (١) .

---

(١) متفق عليه .

ووقف عليه السلام يوماً خطيباً فقال : يأيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكا بالله (قالها ثلاثاً) ثم قرأ : فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (١) .

فعليك أن تحمى عقيدتك وقلبك من مداخل السوء ، وأن تحيا طاهراً بطهارة الايمان ، نقياً بنقاء الاسلام ، وجانب الرجس كله : ظاهره وباطنه ، وأحذر أن تقول زوراً أو تنحرف عن هدى مولاك أمام ضغط عرض زائل أو متاع فان فتخسر خسراناً مبيناً .

والإله العظيم يؤكد هذا المعنى ويرسي قواعده فى النفوس وهو يبين على أى حال يكون اجتناب الرجس من الأوثان فيقول : «حنفاء لله غير مشركين به» ويلقى بهذا الاخلاص فى أعماق الحس الإنسانى وهو يرسم صورة منفرة للشرك والمشركين . وذلك إذ يقول : «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

والحنيف هو : المسلم الذى يتحنف عن الأديان الباطلة ويميل إلى الدين الحق وقيل هو الذى يستقبل البيت الحرام على ملة ابراهيم ، وقيل هو المخلص ، وقيل هو من أسلم فى أمر الله فلم يلتو فى شيء ، وذلك مأخوذ من قولهم : رجل أحنف ، ورجل حنفاء ، وهو الذى تميل قدماه : كل واحدة إلى أختها بأصابعها ، وإنما قيل للمسلم حنيف : لعدوله عن الشرك .

وفى الحديث إنى خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » (٢) .

وكأن الحق حين قال : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، أراد أن يصور لنا عبادة الأصنام شبحاً مخيفاً مفزعا فى طريق الإيمان يقف للانسانية يترصدها

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

ويتحين الفرص للانقضاض عليها ، أنه مهلك لها ومدمر لكيانها ، فماذا يفعل من أساد النجاة ؟ إلى أين يهرب ؟ وكيف يهرب ؟ إلى أين ؟ وكيف ؟ . نعم يهرب إلى الله ، ويميل بعيداً عن هـذا الشبح المخيف فهكذا فعل أبو الأنبيـاء ابراهيم عليه السلام : « إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً »[1].

وبهذا أمر خاتم الأنبياء عليه السلام : قال تعالى : « ثم أوحينا إليك أن أتبع ملة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين »[2].

قال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم : ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[3].

وبهذا أمر الله أهل الكتاب فقال : « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »(٤).

والعرب كانت تسمى من على دين ابراهيم بالحنيف ، وكان عبدة الأوثان فى الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين ابراهيم ، وكانوا يقولون لمن أختتن وحج البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت ، فجاء الإسلام بعقيدة التوحيد بعيدة عن طريق الشرك والباطل ، وما ترك شيئاً مما فعل ابراهيم ، فكان الكمال من شيمته ، والاعتدال من علامته .

وإيضاحاً لهذا الطريق يقول : « غير مشركين به » . وانظر إلى هـذه العبـارة .. إنها لم تحـدد ما يجب ألا تشركه مع الله ، وذلك ليصل المؤمن فى توحيده إلى هذه الشفافية الحساسة من صدق الإخلاص ، والاحتراس من مداخل الشرك ، فلا أوثان ، ولا أصنام ، ولا طواغيت ، ولا أي شيء صغر

(١ ، ٢) سورة النحل ١٦/١٢٠ ، ١٢٣

(٣) سورة الروم ٣٠/٣٠

(٤) سورة آل عمران ٣/٩٥

أو كبر ، عظم أو حقر ، يستحق العبادة ويتوجه إليه الإنسان بالطاعة غير الإله الخالق الرازق .

وتأمل صورة المشرك التي ترسمها تلك العبارات : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

وأول ماتلاحظه فى هذه الصورة : هو الحركة المستمرة التى يعرضها القرآن للمشرك . تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

وحين يأتى بلفظ الجلالة قائلا : « ومن يشرك بالله » يبين مدى سوء أدب المشرك وجهله وحمقه واعتدائه على حق الله في أن يعبد وحده .

وأنظر إلى صورة إنسان فى مكان شاهق مرتفع سقط من هذا الارتفاع ، وإذا بطيور السماء تنهش جسمه وتمزقه إربا وتتوزعه فى كل مكان ، أو تأخذه الريح العاصفة فتلقى به فى مكان بعيد ناء يتعرض فيه للمخاطر والهلاك .

إن الإيمان رفعة ورقى ، به يشعر الإنسان بانسانيته ، إنه هدية السماء التي ينظر منها أهل الإيمان إلى غيرهم فيرونهم أقزاماً . فمن الذى يرتفع إلى هذا الأفق وتلك السماء ثم يسقط عنها ؟ إن الله الذي خلق الإنسان أودع فى فطرته معرفته ، والإيمان به ولذلك يقول سبحانه :

وإذا أخذ ربك من بنى آدم : من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إن كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية ومن بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون[1] .

ويقول جل جلاله : ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن أعبدونى هذا صراط مستقيم ؟ ؟(٢)

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢/٧ (٢) سورة يس ٦٠/٣٦ ، ٦١

فمن نسي عهد ربه بعد أن ذكرت به الأنبياء ، وجاءت به الرسل فقد هلك ، والقرآن يعبر عن هذا الهلاك بأنه : « خر من السماء .. » وإنه لمشهد مريع لإنسان يخر ويهوى من السماء : « ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ..(١)

وليت الأمر اقتصر عند هوى هذا البأس من سماء الإيمان إنما بمجرد أن سقط تخطفته طيور الشهوات والأطماع فأصبح وأمس موزع القلب ، مشتت الفؤاد ، مضطرب النفس مشدوداً من كل جوانبه ، ممزقاً من كل أوصاله ، يقول سبحانه :ضرب الله مثلا رجلافيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . (٢)

وبمجرد أن خر من السماء أخذته عواصف الريح إلى مكان سحيق ، وأخذته الشياطين بعيداً عن السعادة و الأمان ، وفى تعبير القرآن : « تهوى به الريح » ما يدل على عنف هذه الريح وتحكمها فى المشرك وأنه لايجد منهافرارا، وحين قال : « في مكان سحيق « أدركنا ما يعانيه الكافر من ضيق المكان وبعده وما هو فيه من غربة ووحشة وآلام .

فلتشكر أيها المسلم ربك ومولاك على نعمة الإيمان والإسلام ، ولتعلم أنك رفيع القدر عالى الدرجة بهذا الإيمان وذلك الإسلام ، وأنظر إلى كل كافر لترى صدق قول الله تعالى .. هذه المجتمعات التي تنكرت لله .. إلام صار حالها ؟؟ فيها من ألوان المتاع الحسي مالايخطر ببال أحد ، تعب من الشهوات فلاتزيد إلا سعاراً ونهما ، المال والنساء والخمور والفجور والتحلل من كل المبادىء السامية والانطلاق المجنون فى عالم الحيوانية ، كل ذلك ميسر كالماء والهواء ، لكن حوادث الانتحار أكثر من أن تحصي، والسر هو أن نسور الشهوات وصقورها قد توزعت منهم القلوب ، وشياطين الانس والجن قد ألقت بهم فى مكان ضيق بعيداً عن واقع الحياة ، فحوصروا في نفوسهم ولم تمتد أعينهم لما وراء الحس.

---

(١) سورة طه ٢٠/٨١

(٢) سورة الزمر ٣٩ ٢٩

والمتعة ، وكل عالمهم وكل مطلبهم والحس والمتاع هو هذا المكان السحيق الذى أهوت بهم الشياطين فيه .. بما يخيم عليه من ظلمة ووحشة وضياع ، ولهذا يعبر القرآن عن الايمان بأنه نور ، وعن الكفر بأنه ظلام فيقول سبحانه . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . .(١)

أرأيت ما أنت فيه من نور ؟؟ أحذر – إذن – أن تطفىء منك الشياطين نور الله وأعتصم بحبل الله ، وجدد إيمانك مع الطائفين والعاكفين والركع السجود .

وتأكيداً لمنهج الله في التزام جانب التوحيد يقول سبحانه : ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق . . فما هى شعائر الله : وما معنى تعظيمها ؟ وما بواعث هذا التعظيم ؟ وما هى المنافع التي لنا فى شعائر الله إلى أجل غير مسمى : وماذا يعنى قوله سبحانه : ثم محلها إلى البيت العتيق : وما صلة هذا كله بأمر التوحيد ؟

أما شعائر الله فهى البدن التي تهدى لبيت الله ، والشعائر : العلامات ، وإنما سميت البدن بذلك لأنها من معالم الحج ، وعلامة على طاعة الله تعالى وهدايته ، وهى شعائر لأنها تشعر ، أى تعلم بأن تدمى بشعيره أى حديدة يشعر بها ، وتعظيم شعائر الله أن تختار من أجود الأنواع وأحسنها وأغلاها ثمنا ، يروى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب ، وعن عمر أنه أهدى نجيبه طلبت منه بثلثمائة دينار ، وقد سأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال : بل أهدها ..

ولم لا تختار وتنتقى ؟ ولم لا يبذل فيها المال وهى شىء يقدم لله ؟ وكيف بك إذا أردت أن تقدم هدية لعظيم من عظماء القوم ؟ ألا تدير الفكر أياماً وليالى وتذهب هنا وهناك باحثاً عن هدية تتناسب مع مقام هذا العظيم ؟ كيف إذن وأنت تتقدم بهديتك إلى رب كل عظيم وخالق هذا الوجود ورازقه :

---

(١) سورة البقرة ٢/٢٥٧

(٢) سورة الحج ٣٦ ٣٢

وهذا الشعور بتعظيم شعائر الله : من تقوى القلوب . . وتقوى القلوب هى الاحساس الصادق النابع من القلب وهى الشعور بالخوف مع الحب ، والرهبة مع الأمان فى كنف الله وما اتصف به من صفات الجلال والكمال .

وتقوى القلوب غير مجرد تقوى الأعضاء تلك التى يتصف بها أهل النفاق فتخشع أعضاؤهم ويبدون فى صورة النساك العباد ، ولكن قلوبهم غافلة عن الله أعاذنا الله من النفاق ومايدعو إليه ، وحبب إلينا الايمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وجعلنا ربنا من الراشدين .

ومع هـــذا التعظيم الذى هو من علامات المتقين لربهم الخائفين من إلههم ومليكهم فان في البدن منافع جمة . ولذلك قال تعالى : « لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » وتلك المنافع هى درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها .

قال عطاء : منافع الهدايا بعد ايجابها وسوقها هدياً أن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة « إلى أجل مسمي » وهو وقت أن تنكر ، وإلي هـــذا ذهب الشافعي .

وإذا كانت هذه منافع خاصة للمهدى فهناك المنفعة العظمي التى تعود على المهدى وعلى الفقراء وتعم المجتمع المسلم ، وتعطي مثلا للطاعة والولاء لله . . وذلك قوله تعالى : « ثم محلها إلي البيت العتيق » . فاذا ماوصلت إلى رحاب البيت المبارك ، وحلت فى الأماكن الطاهرة وجب نحرها .

وفى حديث جابر عن النبي ﷺ : نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا في رحالكم (١) .

وفى حديثه أيضاً عن النبي ﷺ : كل فجاج مكة طريق ومنحر (٢).

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه الحاكم .

وإذا كانت تقوى القلب هى التى حركت فيك شوقا وحنيناً إلى بيت الله ودفعتك لتحمل المشاق ومفارقة الأهل والمال والولد فعليك أن تحتفظ بهذه التقوى فهي النهر العذب الذى تغترف منه كلما لفحك هجير الحياة .

وإذا كان تعظيم شعائر الله هو الذي جعلك تدقق فى اختيار ما أهديته لله وأنت قادم لزيارته فى بيته فكافأك تكريماً وتشريفاً ورفعة ومنزلة ، فهـذا التعظيم يجب أن يمتد ما أمتدت بك الأيام يجب أن تقف عند كل ما شرع ربك معظماً لأمره خائفاً من معصيته لا تستهين بصغيرة من الصغائر فان الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر .

وإذا كنت قد وقفت مواقف الضراعة والانابة والطاعة فتطهرت من كل ذنب فهل تنسي تلك المواقف التي عظمت فيها أمر ربك ووقفت فيها بين يديه تائباً عابداً ؟؟ هل تنسي لحظـات مشرقة بالدعاء عامرة بالرضا ، سكبت فيها العبرات فغسلت أوراق النفس وصدأ القلب فعادت نفسك نقية طاهرة وأشرق نور الله في قلبك فأحسست بالسعادة والأمان .

إنها تقوى القلوب تلك التى تحتاج إلى دوام الممارسة العملية لتعظيم حرمات الله وشعائر الله ، وبهذه الممارسة يبقى لك نقاء التوحيد ومعين الإخلاص سالما من كل شائبة فتنجو مع الناجين ، وتفوز مع الفائزين .

الفصل الخامس

الذبح باسم الله

(ا) طريق الإنسانية الصحيح

(ب) صلته بدعوة التوحيد

(ح) المخبتون وصفاتهم

قال تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم إله واحد ، فله أسلموا ، وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » . (سورة الحج ٢٢/٣٤ ، ٣٥)

(ا) الاسلام دين أصيل ، باسق الفروع ممتد الجذور ، هكذا يشعر أهل الايمان ، وهم يرون أجيال الإنسانية تتوارد على نبع واحد هو نبع الايمان الطاهر وما يفيض به من كريم المبادىء ورفيع المعانى ومن حكمة الله أن شرع للمؤمنين على امتداد التاريخ الانسانى من المناسك ما يحيي فى قلوبهم دائما بواعث الايمان ، وما يشعل في وجدانهم نوره الذى يرون به الحياة فى وجهها المشرق المضىء .. لقد وضع لهم فى الطريق صور وعلامات حتي لا يضل منهم أحد ولا ينحرف عن طريق مولاه .

قال تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام » والمنسك هنا كما قال مجاهد : هو الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

(ب) فكل أمة شرع الله لها منسكا خاصاً بها ، وما ذلك إلا ليذكروا

اسم الله على مايذبحون . فيكون توحيد الله هو المطلب والمقصد من إراقة الدماء ، ويكون الذبح وسيلة لاعلان الطاعة لله وحده إذ كيف يشركون به غيره وهو الذى يرزقهم ما يذبحون ، والمشركون لو سئلوا : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » (١) .

فالمقصد من اراقة الدماء هو كما قال سبحانه : « ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام » انها تربية عملية على توحيد الله سارت عبر القرون والأمم ، وما زال كل رسول يوصى أمته بالتزام جانب التوحيد الى أن ختمت الرسالات بمحمد ﷺ ، قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلافيها نذير »(٢).

وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٣) .

واذا كان الله هو المعبود بحق ، فان القاء مقاليد الأمور اليه وحده هو طريق الانسانية الصحيح ولذلك قال سبحانه : « فله أسلموا » .

والعبادة ذات دلالة خاصة ، فانها تدفع القلب دون توان أو تراجع إلى التسليم المطلق لله ، وتجعل هذا التسليم أمراً خاصاً بذاته ، وتطلق ما يجب أن يسلم فيه المرء لله ليبقى شامـــلا لكل حركات الانسان وسكناته وأقواله وأفعاله . وحياته بل ومماته . ، ومقتضى هذا التسليم أن تجعل هواك تبعاً لما يحب الله ورسوله ، وأن تحكمه فى كل ما ترى من حولك. فالحياة كلها يجب أن تحكم بحكم الله ، وإلا فلا إيمان ولا إسلام إنما هو التحاكم إلى الطاغوت :

---

(١) سورة يونس ٣١/١٠ .
(٢) سورة فاطر ٢٤/٣٥ .
(٣) سورة الأنبياء ١٠/٢١ .

قال تعالى :ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » الى أن قال :« فلا وربك لا يؤمنون حتي يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما(١)

والاسلام جهاز متكامل لا يقبل الترقيع ولا يرضى باستبدال شيء منه بسواه فان ما سواه صناعة بشرية أما هو فصناعة ربانية إلهية ، وما تعانيه مجتمعات الاسلام اليوم انما هو نتيجة مباشرة لهذا الترقيع . ترى فى كثير منها خليطاً عجيباً من قوانين الشرق والغرب وبقايا من شريعة الاسلام فى فرائض العبادات وقوانين الأحوال الشخصية حتى فرائض العبادات فهمت خطأ ، فقد اعتقد البعض أنها من الأمور الشخصية، فلا يعاقب أحد على تركها أو إنكارها . ولهذا ترى من يجاهر بالإلحاد وترك الصـــلاة وإفطار رمضان . وترى أن الزكاة ركن لا يقيمه إلا أصحاب النفوس الطيبة الطاهرة . لكن لا حرج على من أنكره أو بخل بما عنده . هكذا فهمت أمم تعلن أنها تدين بالإسلام(٢) .

وإذا كنت فى منى ترجم الشيطان وتؤكد يوماً بعد يوم مدى كراهيتك لإبليس وجنده فاعلم أن جند إبليس فى أنحاء الأرض . فاذا عـــدت لديارك فواظب على رجم جنود الشيطان . وجاهدهم ليسلم لك دينك ولتنقذ اخوانك المستضعفين .. جاهدهم الى أن يرتفع صوت الحق ويعود الإسلام شريعة تحكم الحياة بالحب والعدل والسلام . جاهدهم فالسفينة قد خرقها الظالمون ، ولا بد أن تصل الى المرفأ الآمن الرحيم ، فهـذا هو مايريد الله من قوله : « فله أسلموا . » انه يريد لنا أن نتحرر من كل رق وأن نتخلص من عبودية العباد الى عبوديته وحده ، فاحذر أن تعطى زمامك لغير الله : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى

(١) سورة النساء ٤ ، ٦٠ ، ٦٥
(٢) انظر الفقرة الثالثة : ما فيه من المنافع ص ٤١

استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى أئتنا ، قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين . .[1]

« قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . .[2]

بهذا ، أمرنا رسولنا ﷺ ،فقل لكل مشرك وملحد ماعلمه الله لهذاالرسول الكريم واعلم أن التزام إسلام الوجه لله ودوام الإخلاص له يحتاج إلى الجهاد المتواصل ، والنجاح فى هذا السبيل هوالنجاح الحقيقى والفوزالأعظم،والقرآن حين يوجه الناس إلى التسليم لرب العالمين لا يدعهمدون أن يرشدهم إلىالوسائل التي يصلون بها إلى هذا الهدف النبيل ، وهـــو يستعمل الترغيب والترهيب ليحاصر النفس البشرية من كل جوانبها فلا تجد مفراً من التسليم له رحمة منه وفضلا ولهذا يقول : وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون .

فمن شهد شهادة التوحيد ، من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأدى ما عليه من واجبات الإيمان والإسلام ، ومن أسلم لربه فى كل جزء من حياته يستحق البشرى من الله . وبشر المخبتين . .

(ج) والمخبتون : هم المطئنون ، أو المتواضعون ، أوهم الراضون بقضاء الله تعالى ، أوهم المجتهدون في العبادة ، . وكل هذا مأخوذ من أصل كلمه « الخبت « فان معناها فى اللغة : المطمئن من الأرض ، فكان المخبت هو الذى اطمأن قلبه وتواضع لمولاه ، ورضي بقضاء الله . فبذل كل طاقته في عبادة ربه ورأىأن هذه الحياة مربوبة خاضعةللرب الخالق ، وهو جزءمنهذا الوجود، تسيرهيدهذا الرب الخالق،فان توقف قلبه عن نبض الطاعة ، وان شذ عن سنن

(١،٢) سورة الأنعام ٦/٧٢، ١٦١، ١٦٣

الوجود أصبح نغماً نشازاً وسط لحن الحياة الرتيب ، ولهذا تلمح ما تعانيه المجتمعات التي انحرفت عن هـــدى الله ، ولم تخشع فى محراب شريعته ودينه ، ورفضت دين الله كله . أو لبست ثوباً مضحكاً فيه عدة رقع . كل رقعة منها لون من الألوان . وانظر مرة أخرى لقوله : وبشر . واسأل: من المأمور بذلك ؟ ومن الذى يحمل لك البشرى ؟ فأى شرف بعد هذا الشرف . وأى تكريم بعد هذا التكريم .

إن كل عاقل ليحن إلى أن يبشر بهذه البشرى وأن يفوز هذا الفوز العظيم لكن هذا الحنين لا يكفى إنما لا بد من الاتصاف بصفات المخبتين وهى كما قال سبحانه : الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . والصابرين على ما أصابهم . والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فأول خطوة على طريقهم هى الخوف من الله . . والخوف من الله لا يأتى إلا بادراك قيمة من تخاف منه وما له من صفات الجلال والكمال . وهذا الإدراك لا يأتى إلا بالذكر الدائم . واليقظة المستمرة حتى تصفو النفوس من الأكدار ويطهر القلب من الأوزار . فهو دائم الوجل والخوف الشديد من الله . كلما سمع اسمه أو صفته خشع وخضع . كيفما كان الذاكر . ولعل هذا بعض ما يفهم من عدم التصريح بالذاكر فى قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . .(١)

وفى قوله سـبحانه : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»(١).

والخوف لا يأتى إلا بخير ، والقلب الذى استقرت فيه خشية الله لا يشع منه إلا النور .

---

(١) سورة الأنفال ٨/٢

(٢) سورة الزمر ٣٩/٢٣ .

لهـــذا كانت الصفة الثانية من صفات المخبتين : « والصابرين على ما أصابهم » .

ولنتوقف قليلا عندهذه الصفة ولماذا أتت بعد الخوف من الله ، فإن الخوف لا يعنى الضعف والمذلة والمسكنة بل العكس هو الصحيح ، فان الخائف من الله لا يخاف سواه ، ومن هنا لا يؤثر فيه ضغط اجتماعي فاسد ، ولا عنف ظالم ، ولا يزحزحه عن طريق مولاه جبروت طاغية ، إن الخائف من الله قوة لا تزلزلها العواصف ، وثبات لا تؤثر فيه الرياح الهوجاء ، والخائف يتعرض لألوان من الابتلاء وصنوف من المحنة فى نفسه وماله وولده وخلقه ودينه ، ولكنه مطمئن لأمر الله ، صابر على ما يصيبه فى سبيل ربه ، ومن هـذا الصبر صبره على ما يصيبه فى دنياه ، لأنه لا يملك الاعتراض على قضاء الله .. إنه صابر على ما ينزل به من بلاء في نفسه وماله وولده . قال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر فى بابين : الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان . والصبر لله عما كره ، وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله .

وقال على بن الحسين : زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين يابنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة .. فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا على معصية الله حتى توفانا الله . قالوا : أنتم كما قلتم ، أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

---

(١) سورة البقرة ٢/١٥٥—١٥٧

وفي هذا قول الحق سبحانه : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) .

والرسول عليه السلام يتعجب من المؤمن فيقول : عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له (٢) .

أما الصفة الثالثة للمخبتين فهي : « والمقيمى الصلاة » . وإقامة الصلاة كما سبق أن أوضحنا فى دعاء إبراهيم عليه السلام وهو يقول : « ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة » .

وقد عرفت أن إقامه الصلاة لايتم بمجرد أدائها فى أوقاتها وأدائهـا على ما أراد الله من الطهارة والخشوع ، ومالها من آداب وأحكام . فهذا بعض معانى الإقامة ، إنما إقامتها معناها : رفع شعارها فى كل مكان ، وأن تكون طريق حياة للبشر ، معناها أن تكون سمة من سمات المجتمع المسلم ، وعلاقة بارزة مميزة لحياته ، ولهـذا كان أول عمل لأهل الايمان إذا مكن الله لهم فى الأرض إقامة الصلاة : الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة . وفى إقامة الصلاة ، ذكر لله وربط للانسان بخالقه ، كما أن الجهاد فىسبيل اقرارها يحتاج إلى الصبر ، صبر على أدائها ، وصبر على مشقات الدعوة وما يتحمله الدعاة إلى الله والمجاهدون فى سبيل الله من آلام و بلاء .

أما الصفة الرابعة فهى قوله سبحانه : « ومما رزقناهم ينفقون » فالإنفاق في وجوه الخير ديدنهم ، وبذل المال طبيعتهم المتجددة مع كل أنة ألم ودمعة بائس ، ولوعة مسكين ، ومسغبة يتيم ، وهم حين ينفقون يحسون أن مابين أيديهم فضل من الله إن شاء أخذه وإن شاء أبقاه : « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ..

---

(١) سورة الزمر ٣٩/١٠ وانظر ابن كثير ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) رواه مسلم .

وهو سبحانه لم يكلفهم شططا ، إنما طلب إنفاق بعض ما أعطاهم ، والمخبتون هم أصحاب القلوب العامرة بالحب للناس والاحساس بحاجة الضعفاء لهذا كان من أوصافهم الإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ، وبهذه الصفات الأربع يكمل لهؤلاء المخبتين ماتتمنى الإنسانية من معانى الرفعة والكرامة والعزة والقوة والرحمة والمحبة والإخاء .

وهذه هى صفات حجاج بيت الله الحرام . فاذا ما أديت نسكك ولبيت نداء ربك وشهدت أن إلهك إله واحد ، وأسلمت له كل أمرك كنت جديراً أن تبشر بالخير كله لأنك من المخبتين ، لقدشفت روحك وتطهر حسك وشعورك وعشت مواطن الذكريات الغالية ، وامتلأ قلبك حباً وطاعه لخالقك وصبرت على فراق الأهل والولد ، وتحملت مشقات السفر ، وصبرت على ماوجدت من صعاب فى أداء المناسك ، وتجمعت مع اخوانك المؤمنين حول بيت الله لتقيموا الصلاة فأديتها كما أمر الله ، وأنفقت من مالك الكثير فأبشر بالخير العميم والجزاء العظيم ..

الفصل السادس

البدن

(ا) كيفية ذبحها .

(ب) ما فى الذبيحة من حقوق .

(حـ) التقوى هى المطلب الحقيقى من إراقة الدماء .

قال تعالى : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوامنها و أطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم .وبشرالمحسنين»

[الحج ٢٢/٣٦،٣٧]

(ا) مازال الحق تبارك وتعالى يرسي دعائم التوحيد ويرسم للبشرية خطا مستقيما لئلا تضل الطريق . فبعد أن بين كيف تعظم شعائره . وإلى من تهدى هذه الشعائر . وبعد أن بين ما كانت عليه الأمم فى أمر النسك ، ودعا إلى التوحيد وإسلام الأمر له وحده وبعد أن بين صفات المخبتين قال : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير . فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » .

فان البدن مما ينفقون . « والبدن : جمع بدنة وهى الناقة أو البقرة تنحر بمكة . وسميت بذلك لعظم بدنها لأنهم كانوا يسمنونها ثم يهدونها . ومعنى أنها من شعائر الله : أى جعلها الله علماً على طاعته وعنواناً لمحبة العبد لخالقه ؟ ولم لا تكون عنوان المحبة وهى إنما تهدى لبيت الحبيب ؟ ولم لا تكون علماً على الطاعة وهى قد حملت طابع الإخلاص وأشعرت لتكون دليل القربى إلى

الله . ومع أن الله جعلها لنا من أعلام دينه . فلن نحرم الخير العاجل كما لم نحرم الخير الأجل « لكم فيها خير » أي خير كثير عظيم . من الإنتفاع بلبنها ونسلها وصوفها وركوبها . وهذه هى طريقة ذبحها : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » ومعنى صوافّ : أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن فالبدنة عند ذبحها تعقل إحدى يديها ثم تقوم على ثلاث . وعقلها عند النحر سنة فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أنه رأى رجلا قد أناخ بدنه وهو ينحرها . فقال : ابعثها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ .

والأكثرون على عقل اليد اليسرى . وقيل لافرق بين عقل اليسرى وعقل اليمنى . فقد أخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال: اعقل أى البدن شئت . والهدف من نحرها هو ذكر اسم الله عليها .

وإنه لأمر يستدعى منا التأمل والنظر . فهذا كله من أجل ذكر اسم الله على ما يذبح ؟ ؟ يكرره القرآن ويؤكده ويدير فيه الحديث مرة ومرات . فما بالنا والحياة كلها تسير بعيدة عن الله ؟ وكيف وشريعة الله تحارب فى كل مكان ؟ وكيف وأحكام القرآن معطلة فى أنحاء الأرض . مما يدعو إلى الرثاء والاشفاق ويتطلب منك بذل الجهد والتضحية بالغالى والنفيس حتى يرتفع اسم الله على كل ما ترى .

(ب) إن إراقة الدماء مع ذكر اسم الله عليها تدريب عملى على طاعة الله وتفويض الأمر له . فاذا ذبحت ذبيحتك قائمة معقوله وقلت باسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك . ووجبت منها الجنوب وسقطت على الأرض . فلا تنس الفقراء : فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . .

(ح) وأعلم أن البدن « ناقة أو بقرة » تكفى عن سبعة (وفى صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه : كنا ننحر البدنة عن سبعة) فقيل : والبقرة ؟ فقال : وهل هى إلا من البدن ؟ أى حكم البقرة حكم الإبل فقد روى أبو داود عن جابر قال : « البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » والأمر بالأكل منها

فيه مشاركة الأغنياء للفقراء وفيه من مثل الإسلام وقيمة الكثير فيه المساواة والتواضع والمحبة والرضا : وفيه تكافل اجتماعى نابع من نفس طاهرة لا تبتغى من أحد جزاء ولا شكورا .

والأمر هنا : للاباحة فلو لم يأكل لاشيء عليه. لأن الامتناع عن الأكل ليس كبراً وترفعاً عن الفقراء إنما زيادة حرص على أن ينتفعوا بالبدنة كلها وزيادة محبة فى فعل الخير والإكثار منه فى مواقف الطاعات والقربات .

والأمر الثانى : وأطعموا القانع والمعتر » والقانع الراضي بما عنده وبما يعطى دون مسألة ولا تعرض لها والمعتر . المتعرض للسؤال . قيل القانع : السائل : والمعتر : المتعرض من غير سؤال وإنما سمى السائل قانعاً لأنه يرضى بما يعطيه قل أو كثر ويقبله ولا يرده والمجتمع المسلم لا يترك من يمنعهم الحياء أن يسألوا الناس شيئاً أو من يدفعهم ضيق ذات أيديهم لمدها بالسؤال دون أن يعمل على سد خللهم وإعطائهم ما يحتاجون : وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا إبتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم(١)

ولعلنا ندرك سر قوله تعالى : « وأطعموا » فانك لو تركت جزءا أو تركتها كلها للفقراء تكون قد أطعمتهم لكن يبقى لهذا الأمر ظل خاص وكأنه أراد أن يقول : عليكم أن تتأكدوا من وصول هذا لأهل الفاقة والمسكنة بأن تطعموهم بأنفسكم وذلك لتطيب خاطرهم وربطهم باخوانهم وإشعارهم بعزتهم وكرامتهم . فما أعظم هذا الدين وما أكرم هذا الخالق العظيم .

سورة البقرة ٢/٢٧٢ : ٢٧٣

(ج) بقى أمر يسترعى الانتباه في هذه البدن : وذلك انك تراها سهلة القياد لا تمتنع عن ذبح ولا ترفض أن تعقل أو تلقى على جنوبها. وهنا لا بد أن نتساءل : من الذى أسلس لنا قيادها ؟ أليس هو الرب الرحيم أليست هذه نعمة من نعمه العظيمة ؟ ولهذا يشير الكتاب الكريم إلى هذه النعمة بقوله : « كذلك » .

ولاشك أننا ندرك ما أودع الله فيها من قوة لكننا نعطى زمامها لابن صغير ضعيف فتنقاد له طائعة ، فمن الذى ذللها وسخرها لنا ؟ إنه الرب الكريم « كذلك سخرناها لكم » .

فهى في خدمتكم تنتفعون بها وتستعينون بها فى تيسير حياتكم. ألا يستحق ذلك الشكر لولى النعمة ، لذا يقول سبحانه : « لعلكم تشكرون » .

وهذا هو هدف وجودنا فى هذه الدنيا ، وذلك هو المقصد من نحر الذبائح إنها منهج عملي يوصلنا إلى درجة العبودية الكاملة لله .. « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) .

وليست إراقة الدماء أو إطعام الطعام هى الهدف ، إنما الهدف هو ايجاد نوعية انسانية فريدة تحمل قلوباً رحيمة ونفوساً خيرة ، وأفئدة متعلقة بالله فيفيض برها على العالمين .

ولهذا يقول سبحانه : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين» .

أى لن تكون اللحوم أو الدماء سبباً لرضوان الله ومحبته لكم من حيث هى لحوم ودماء ، إنما لما يصحبها من ذكر لله واخلاص له وصدق فى النية

---

(١) سورة الذاريات ٥١/٥٦ — ٥٨ .

والقول والعمل ، وذلك كله نابع من تقوى الله ، فتقواكم وخوفكم من الله وعملكم الدائب من أجل مرضاته هو سبب القبول والرضا والمحبة ، قال مجاهد : أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيما لها وتقربا اليه تعالى فنزلت هذه الآية .

وزيادة فى الامتنان ولفتا للقلوب وللعقول لما فى الأنعام من نعم وكيف أن هذه الطاقة القوية التي تحمل الأثقال الى المسافات الشاسعة تنقاد لنا فى يسر وسهولة .. يقول سبحانه : « كذلك سخرها لكم » .

ويؤكد وجوب الشكر ويحدد طريقه وهو يوضح الهدف من ايجاد هذه النعم فيقول : « لتكبروا الله على ما هداكم » ..

أى لتقولوا عند ذبحها « الله أكبر » أو لتحمدوا الله وتشكروه على ما أفاء عليكم من نعمة الإيمان والإسلام ، وما من عليكم من نعمة الهداية الإلهية ..

ولكن العبادة — كما ترى — لا تصل الي أفقها العالى عباراتنا البشرية القاصرة ، فان تكبير الله اعتراف مستمر بعظمة الإله الخالق ، وتسليم مطلق لكبريائه ، وهذا التكبير هو سر عزة أهل الإيمان : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) وهو من هداية الله لنا وتوفيقه لأهل الاسلام ..

وختاما لهذه الجولة فى بيان حقيقة البيت وبانيه ، وتفاهة الشرك والمشركين وأثر مناسك الحج فى حياة الفرد والجماعة ، وما فى الهدى من اراقة للدماء والهدف من ذلك ، يختم هذه الجولة بقوله : « وبشر المحسنين » .

واذا كان المسلم يحتاج الى أن يحسن فى كل قول وعمل فانه — وهو

---

(١) سورة المنافقون ٨,٦٣

يؤدى مناسك الحج — يحيا في ضيافة الرحمن ، فى بيت ربه الكريم ، ولا بد أن يدقق وأن يتحقق وأن يراقب نفسه وقلبه فى كل خطوة يخطوها ، وأن يؤدى ما أوجب الله عليه بازلا كل طاقته ، مخلصاً لربه حتى يحوز الرضا ، ويحظى بهذه البشرى التي يحملها له رسول الانسانية محمد عليه السلام .. وما أعظمها من بشرى ، وما أعظم من يحملها صلوات الله وسلامه عليه .

الباب الرابع

أحكام ومعايير

الفصل الأول : السعى بين الصفا والمروة .

الفصل الثانى : أضواء على آيات من سورة المائدة .

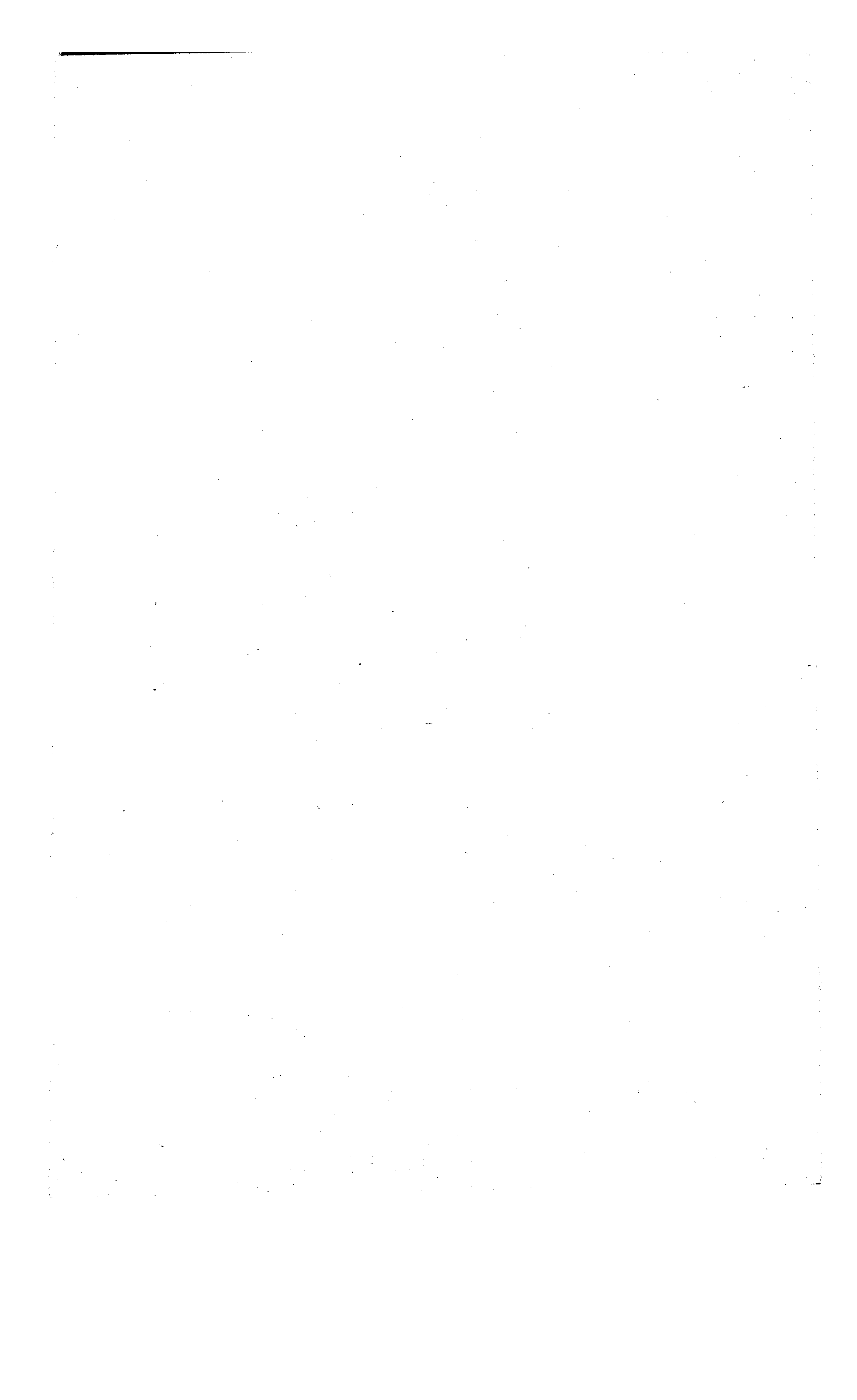
(ا) تحريم الصيد على المحرم .

(ب) تعظيم شعائر الله .

(حـ) صيد الحرم واصطياد المحرم : حكم ذلك وجزاؤه .

(د) الكعبة وتعظيمها .

الفصل الثالث : من أحكام الحج ومعاييره فى سورة البقرة .



الفصل الأول

السعى بين الصفا والمروة

قال تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » .

(سورة البقرة ٢/١٥٨)

من لم يعرف سبب نزول هذه الآية الكريمة قد يتوهم أن السعى بين الصفا والمروة غير واجب مع أنه ركن من أركان الحج عند الأئمة الثلاثة وواجب عند أبى حنيفة . . وذلك أن الآية كما ترى تقول : « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

فنفت الجناح والمؤاخذة على من طاف بهما ، فهل من أدى ركناً أو واجباً من أركان الحج وواجباته يقال له : لا جناح عليك فى هذا ؟؟ وهل يعنى ذلك أن من لم يفعل لاحرج عليه ولا مؤاخذة ؟

إن سبب النزول يحسم هذه القضية . فقد روى الامام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير أنه قال لخالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : أرأيت قول الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

قال عروة : فو الله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة : بئسما قلت يا بن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت إن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا :

يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية ، فأنزل الله عزوجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » قالت عائشة : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما . أخرجاه في الصحيحين .

وروى البخارى بسنده عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنساً عن الصفا والمروة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .

وقال الشعبي : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونها فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (١) .

فالآيه إذن ليست دليلا على وجوب السعى أو ركنيته، إنما نزلت تنفى حرجا شعر به أصحاب رسول الله ﷺ فى أول عهدهم بالحج ، وقد كانوا فى جاهليتهم يرون إساف على الصفا ونائلة على المروة ، فاذا سعوا بين الصفا والمروة استلموا هذين الصنمين ، فلما جاء الإسلام وحطم الأصنام ، وطهر بيت الله الحرام ، وأمر المسلمين بالسعي بين الصفا والمروة ، شعر الكثير منهم بهذا الحرج ، فجاء قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

يبين لهم أن هذا السعى أصبح من جملة شعائر الله ، « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فالأمر لم يعد أمر الجاهلية إنما أصبح أمر الإسلام وأحكامه وما جعله لأهل الإيمان معلما من معالم العبودية والطاعة .

والإسلام حين أتى للحياة وجد فيها خليطاً من الحق والباطل ، فنقى هذا الحق وصفاه وأعاد إليه وجهه المشرق المضيء ، ونفى ما عليه من أقذار

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ط دار احياء التراث العربى بيروت (١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩) .

الجاهلية وأوساخها وضلالها وصاغه فى مفهوم جديد ، وألبسه ثوب الإيمان، وربطه بمصدر الحق كله ، ورده إلى الإله الحق أحكم الحاكمين .

وهكذا كانت شعائر الحج ومناسكه فى الجاهلية : اختلط فيها الحق الذى أتى به إبراهيم عليه السلام بانحرافات الجاهلية ووثنيتها وإشراكها ، فلم يكن أمام الاسلام إلا أن يضرب الوثنية والانحراف والإشراك ضربات قاضية ليبقى الحق الذى أتت به السماء منهجاً صادقاً للاخذ بيد الإنسان إلى مراتب الكمال الإنسانى حين ينفذ هذا الإنسان أوامر ربه في طاعة لاتعرف التردد ، وحب لا يشوبه كره ، وشوق يدفع إلى الامتثال عن رضا واقتناع .

والسعى بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الله ، أداها رسول الله ﷺ فى جملة ما أدى من الشعائر حين كان يعلم أصحابه كيف يؤدون هذه الشعائر ويعظمونها وهو يقول : خذوا عنى مناسككم.

فكيف كان يسعى صلوات الله وسلامه عليه بين الصفا والمروة ؟

فى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، ثم قال : « أبدأ بما بدأ الله به » وفي رواية النسائى : ابدأوا بما بدأ الله به .

روى الإمام أحمد بسنده عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبى تجرأة قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم ، وهو يسعي حتي أرى ركبتيه من شدة السعي . يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » .

وفي قوله ﷺ : « ابدأوا بما بدأ الله به » دلالة على أن ابتداء السعى إنما هو من الصفا فلو ابتدأ من المروة لم يحتسب له شوط ويكون إبتداء الأشواط السبعة إنما هو الصفا ، وفى قوله صلوات الله وسلامه عليه : اسعو فان الله كتب عليكم السعي مايشير إلى أن السعى ركن من أركان الحج لأن

« كتب » معناها فرض كما قال تعالى كتب عليكم القصاص فى القتلى ، وكما قال : يا أيها الذين آمنو كتب عليكم الصيام . وهذا ما قال به الأئمة الثلاثة ، وقال أبو حنيفة . إن السعي واجب يجبر تركه بدم وليس ركنا لا يصح الحج بدونه .

وفى قول جابر : ثم خرج من باب الصفا . إلى آخر ماقال : دلالة على أن السعى لا يكون إلا بعد طواف صحيح ، فلو ابتدأ بالسعى قبل الطواف لم يصح سعيه .

والسعى لا يكون إلا لمحرم بحج أو عمرة ، وهو سبعة أشواط بدايتها الصفا ونهايتها المروه . هكذا فعل رسول الله ﷺ وهكذا فعل أصحابه ؟ وعلى هذا إجماع الأمة . لذا لايجوز له أن ينقص الأشواط السبعة خطوه واحده وإلا لم يصح سعيه ، وبالتالى لايتحلل من إحرامه .

وذهب أبو حنيفة إلى القول بأنه لو سعى أربعة أشوط صح سعيه لأنه أتى بأكثره ، ولو سعي أقل من ذلك لم يصح ووجب عليه دم .

هذه واجبات السعى أما سننه فهى : الموالاة بينه وبين الطواف وأن يستلم الحجر الأسود قبل الذهاب للسعى ، وأن يخرج من باب الصفا تاليا قول الله تعالى : إن الصفا والمروة . الآية . وأن يكون مطهراً وأن يصعد على الصفا والمروة كلما بلغهما بحيث يشاهد الكعبة ، فاذا ماشدها استقبلها فوحد الله وكبر ثلاثا وحمده وقال : لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . ثلاث مرات وليدع بدعاء عبد الله بن عمر الخطاب : اللهم إنك قلت : ادعونى استجب لكم » وإنك لا تخلف الميعاد ، وإنى أسألك كما هديتنى للاسلام ألا تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم .

وابدأ سعيك مكثراً من الذكر والدعاء والضراعه لله فاذا ما وصلت بين

الميلين الأخضرين فأسرع الخطأ ، (وهو مايعرف بالخبب) وهوخاص بالرجال دون النساء .

وعلى الساعى أن يستحضر فى نفسه ذل العبودية وافتقاره لخالقه ، وأن يذكر حال المجاهدين الأوائل عليه أن يذكرهاجر وسعيها بين هذين الجبلين ، وكيف استسلمت لأمر الله ورضيت بالحياة فى هذا المكان القفر الموحش لا أنيس معها ولا جليس استجابة لوحى الله ، فما تركها ربها فى حيرتها وخوفها وعطشها وعطش وليدها حتى أرسل لها جبريل يضرب الأرض بجناحه فيخرج لها ماءاً عذباً هو طعام طعم ، وشفاء سقم .

ونحن إذا ما تأملنا فى قول الله تعالى . إن الصفا والمروة من شعائر الله . سنجد أن الآية تقرر أن الصفا والمروة من شعائر الله لامن شعائر الجاهلية ، فقد انتهى عهد الجاهلية وبطلت شعائرها وهى بهذا التقرير تذهب مافى النفوس من حرج ، وتطمئن القلوب وترغبها فى الامتثال وتدعوها إلى الطاعة ، وهى بهذا التقرير — أيضاً — تدعو المؤمنين إلى تعظيم هذه الشعيرة وتدفعهم إلى أدائها على الوجه المطلوب دون تردد أو شك أو توان أو تقصير .

وإذا كانت من شعائر الله فلا بد أن تعظم ، وعلى هذا فما كان يفعله الأنصار فى جاهليتهم حين كانوا يهلون لمناة الطاغية فيتحرجون من السعى بين الصفا والمروة ، وماقاله أنس رضى الله عنه من أنهم كانوا يرون الصفا والمروة من أمر الجاهلية ، كل هذا لامكان له بعد أن أصبح السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما .

والحج : قصد مكة لأداء عبادة الطواف بالكعبة ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، وسائر المناسك محرما بنيه الحج .

والعمرة : مأخوذة من الإعتمار وهو الزيارة ، والمقصود بها : قصد مكة لزيارة البيت والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ، والحلق أو التقصير .

والسعي ركن من أركان الحج والعمرة : فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بالصفا والمروة ، وقد عرفنا سر قوله : فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، والجناح من الجنوح وهو الميل ، فلا يميل أحد على من طاف بهما بلائمة ، ولا يؤاخذه بما فعل .

وقد فهم أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين ، وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس أن السعي مستحب وليس بركن ولا واجب لأن الله يقول في آخر الآية : ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم . والتطوع لا يكون في أي مفروض أو واجب إنما يكون في المسنون الذي من قام به حاز الخير ، ومن تركه لا شيء عليه

ولكن فعل الرسول وقوله يرجح رأي الجمهور الذي رأى أنه ركن من أركان الحج ، ويكون قوله : ومن تطوع خيراً . من باب الترغيب في أداء هذا الركن الجليل ، شأن الله في كل ما شرع ، وما افترض على عباده ، ترى ذلك في جميع فرائض العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج . وتراه في سائر ما أوجبه الله على خلقه في باب الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والصلات بين الأفراد والجماعات مما يضيق المقام عن حصره وذكره وذكر ما جاء فيه من الترغيب وما أعده الله من جزيل الثواب لمن التزم به . ولذلك أدى المؤمنون ماوجب عليهم طواعية واختياراً ورغبة فيما عند الله وحبا في أداء تلك الواجبات .

ومن هذا ما تراه في قول رسول الله ﷺ لبلال حينما كانت تحين الصلاة : أرحنا بها يابلال . وقول الله تعالى في الزكاة المفروضة : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[1] فسماها صدقة مع أنها زكاة مفروضة .

وهكذا سائر العبادات التي من تطوع بها وأداها على وجهها الصحيح كان

---

(١) سورة التوبة ١٠٣/٩

ذلك خيراً له فى دنياه وأخراه .. وعلى قدر إخلاصه يكون ثوابه ولذلك كان ختام الآية : فان الله شاكر عليم .

فهو سبحانه يثيب عبده على العمل القليل الأجر الكثير ، عليم علما محيطاً بهذا الكون وما فيه ومن فيه : يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وبهذا الختام للاية يندفع العبد إلى العمل القليل يحدوه الخوف والرجاء . والرغبة والرهبة . لأنه يدرك أنه : إذا تقرب إلى ربه شبراً تقرب إليه ذراعاً وإذا تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعاً ، وإذا أتاه يمشى أتاه هرولة..(١)

ومن الذى يعرف نية العبد فى قربه من ربه سوى الإله العظيم والرب العليم؟

ومن الذي يرى صدق المؤمن فى تعظيمه لشعائر الله ومنها سعيه بين الصفا والمروة ، سوى الإله المطلع على السرائر . من يعلم السر وأخفى .. فسبحانه من إله عليم .

---

(١) رواه البخارى .

الفصل الثاني

أضواء على آيات من سورة المائدة

(أ) تحريم الصيد على المحرم

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد »
[المائدة ٥ / ١]

فى هذا النداء وما بعده من النداءات التي نتناولها بالدراسات أحكام تتعلق بالبيت الحرام وماجعله الله فيه من الأمان الذى شمل الانسان والطير والحيوان وفى الآيات التى نستعرضها كثير من معايير الإسلام ومبادئه الرفيعة وقيمه العالية . .

والقرآن لايسوق من ذلك كله أوامر جافة وكلمات جوفاء : شأن قوانين البشر وأحكامهم ، ولكن هذا هو القرآن ، وتلك هى طريقته : يأسر القلوب ويستولى على المشاعر ويربط كل حكم فيه بأصله الثابت وأساسه المتين ، يربطه برباط الإيمان ، ويشده بوثاق الخوف من الله ، وما فى اليوم الآخر من نعيم وجحيم وثواب وعقاب . .

ولهذا نلمح فى بداية هذه الآية النداء بوصف الإيمان : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

كما سنلمح هذا فى النداءات الثلاث القادمة : « يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله » . « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد » . « يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » .

ولذلك يروى أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال : إعهد إلى فقال : إذا سمعت الله يقول : « يأيها الذين آمنوا » فارعها سمعك ، فانه خير يأمر به أو شر ينهي عنه (١) .

فالايمان قاعدة كل أمر ونهي ، ومنطلق كل ما جاء من تشريعات أحكمت شأن الحياة وأعادته إلى مجراه الصحيح . .

فلننظر في تلك النداءات الأربع لتستمع إلى ما بعدها من أوامر ونواه ما دمنا نتحدث عن الحج في القرآن الكريم . .

وأولها هو قوله تعالي : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم ما يريد » :

فماذا فى هذه الآية ؟؟

« حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالو له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فاذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاماً ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا » (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣ .

فهذا النداء الذى يستجيش مشاعر الإيمان فى النفس المؤمنة يتبعه أمر بالوفاء بالعقود ، والعقود هى : العهود ، وكم للانسان من عهـــود : عهده مع الله ، وعهده مع الناس . قال زيد بن أسلم : أوفوا بالعقود ، قال هى ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين(١).

لكن بشرط أن توافق هذه العهود كتاب الله وسنة رسوله ، فكل عقــد ليس فى كتاب الله فهو رد ، وعهد الله : أهمها جميعاً وأساسها جميعاً ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الوفاء بالعقود إنها : ما أحل الله وماحرم وما فرض وما حد فى القرآن كله .. لاتغدروا ولاتنكثوا (٢) .

وقال الضحاك : إنها ما أحل وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبى والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام (٣) .

ولهذا ذكر بعد هذا الأمر لوناً ممــا أحل ، واستثنى منه ما حرم فقال : أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم .

وبهيمة الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم ، سميت بذلك لما فى مشيتها من النعومة واللين ، وقد عرفنا ــ فيما سبق ــ كيف جعل الله بهيمة الأنعام مظهراً من مظاهر إنعامه على عباده ، وكيف جعل ذبحهـــا باسمه مظهراً لعبوديته ، وإعلانا من الخلق عن طاعتهم للاله الخالق الرازق .

ولكن هذا التحليل ليس على إطلاقه فقد استثنى منه ماحرمه ، وهو مايعبر عنه قوله : « إلا ما يتلى عليكم » .

(١) فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٤ .
(٢) فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٧ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣ .

وقد تلا هذا على المؤمنين حيث قال : «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم[١]

وحيث قال : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم[٢] .

وسيتلو عليهم هذه المحرمات فى الآية الثالثة من السورة حيث يقول: حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلك فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ، فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم ، فان الله غفور رحيم . . »

وإذا كان قوله أحل لنا هذا وحرم علينا ذاك ، فضلا منه وكرماً ورحمة ، فقد حرم على المحرم بالحج أو العمره ، أو بهما معاً صيد البر فقال : غير محلى الصيد وأنتم حرم(٣) .

يقول ابن كثير فى معنى ذلك : « المراد أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام . .(٤) أى محرم .

وهو سبحانه حين يأمر أو ينهى ، وحين يحل أو يحرم فهذا شأنه وحده لا معقب لحكمه ولا راد لأمره ، ولهذا كان ختام الآية : « إن الله يحكم ما يريد » .

---

(١) سورة الأنعام ٦/٤٥

(٢) سوره البقرة ٢/١٧٣ .

(٣) سنعرف تفصيل ذلك فى الآيات التالية .

(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤ .

. وقبل أن نعرف ما فى الآيه لابد أن نقف عند بعض ما فى هذه الآية من الأسرار والأنوار . . فما ذا نرى فيها ؟ ؟

نرى أنه سبحانه يعبر عن العهود بالعقود : جمع عقد ، وكلمة العقد توحى بالرباط الحسي ، فاذا استعمل فى الربط المعنوى دل على شدة إحكامه ووثاقة رباطه ، ونرى أنه قد بين لنا جانباً من العهود التي يجب الوفاء بها حيث قال : أحلت لكم بهيمة الأنعام . . وهذا الجانب هو جانب الإلتزام بما أحل وحرم، والمحل هو الله عز وجل ، صاحب الفضل كله و « لكم » تشعر بهذا التفضل الإلهى ، أى أحلها من أجلكم ، « وبهيمة الأنعام « تشمل الأزواج الثمانية المذكورة فى قوله تعالي: ثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين »وفى قوله : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين . .(١)

هذا كله حلال لكم إلا ماسيتلى عليكم فى قوله فى الآية الثالثة من هـــذه السورة: « حرمت عليكم الميته . . الآية . . » أو ما تلا عليكم فى قوله فى سورة النحل : « إنما جرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان الله غفور رحيم ..(٢)

وفى سورة الأنعام : «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه. الآية .

وفى سورة البقرة : إنما حرم عليكم الميتة . . الآية . .

ويأتى قوله : « غير محلى الصيد وأنتم حرم . . » يقرر حرمة الاصطياد على المحرم فى أبلغ عبارة ، وكأنه قال للمحرمين : لا تحلوا ما حرمت عليكم بعد أن أحللت لـكم بهيمه الأنعام إلا تلك الأنواع التي لو أكلتم منها لكان فيها عليكم الضرر الجسيم والخطر العظيم . .

---

(١) سورة الأنعام ٦/١٤٣، ١٤٤

(٢) سورة النحل ١٦/١١٥

وفى قوله فى ختام الآية : « إن الله يحكم ما يريد . . » نلمح الجملة الإسمية المؤكدة « بأن » وهي تدل على ثبوت هذا الوصف ودوامه لله رب العالمين . .

وفى الإخبار عن الله بأنه « يحكم ما يريد » دلالة على أن مافي الوجود كله لا يخرج عن حكم الله وأمره ولا يشز عن إردته لأنه « فعال لما يريد » فالحياة كلها محكومة بحكمه مسيرة بمشيئته . .

(ب) تعظيم شعائر الله

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . ولا الشهر الحرام ولا الهدى . ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً . وإذا حللتم فاصطادوا . ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » (المائدة ٥/٢)

هذا هو النداء الثانى ، وفيه ينادى الله المؤمنين ليبين لهم ما نراه فى الآية من توجيهات ربانية ومبادىء سماوية . وفى بدايه ذلك تلك الأمور الخمس التي لا يجوز لهم أن يحلوها ... فما المقصود من نهى المؤمنين عن الاعتداء على تلك الأمور الخمس ؟ ؟

يبدو من السياق ومن الآثار الواردة فى الآية أن هـذا النهى للمؤمنين مقصود به عدم الاعتداء على تلك المحرمات حتي لو كان الملتزم بها أهل الشرك وأهل الضلال ، فقد كان العرب فى جاهليتهم يعظمون البيت ومشاعره ، مع ما شاب هـذا التعظيم من عبادة الأصنام وكثير من تفاهات الجاهلية وضياعها واعتقاداتها الخاطئة : « فقد ذكر عكرمة والسدى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى الحطم بن هند البكرى كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابه أن يعترضوا عليه فى طريقه فأنزل الله عز وجل ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » (١) .

وأخرج ابى أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية

---

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٥ .

وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم : فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله : « ولا يجرمنكم » الآية (١) .

لكن هل بقى هذا النهى للمؤمنين قائما أو نسخ بما نزل بعد من آيات تطالب المسلمين بقتال المشركين ومنعهم من دخول المسجد الحرام ؟؟

ومن هذه الآيات فى سورة التوبة قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » (٢)

وقوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون » (٢) . وغير ذلك من الآيات..

يقول ابن كثير : « وقد حكى الامام أبو جعفر الاجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم . وغيرها من شهور السنة . قال : وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان » (٣) .

وقال ابن كثير أيضاً : قال عبد الرازق حدثنا معمر عن قتادة في قوله : « ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام » قال : منسوخ ، كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد فاذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت فأمروا أن لا يقاتلوا فى الشهر الحرام ولا عند البيت ، فنسخها قوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٣) .

(١) فتح القدير جـ ١ ص ٨ ، وابن كثير جـ ٢ ص ٦ .
(٢) سورة التوبه ٩/٥ ، ١٧ (٣) ابن كثير جـ ٢ ص ٤

ومعني ذلك أن هذا الحكم قد نسخ العمل به . « وهذا ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد ، وقوله : فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ».

لكن إذا قلنا بأن هذا الحكم قد نسخ بما جاء من آيات فى سورة التوبة ، وما ورد من روايات عن بعض السلف فلنا أن نتساءل : هل استحل المؤمنون حرمة مشاعر الله والشهر الحرام والهدى والقلائد ، واعتدوا على آمين البيت الحرام ؟ أو هل يجوز لهم بعد أن نزلت سورة براءة أن يستحلوا شيئاً من ذلك ؟ إن هذا ما لم يحدث ، ولا تعارض بين ما جاء من هذا النهى فى سورة المائدة وما ورد من الأمر بقتل المشركين وقتالهم ومنعهم من دخول المسجد الحرام فى سورة التوبة .. ولذلك لما سئل الحسن : « هل نسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا » (١) .

وإذا كان المسلمون قد شاركوا المشركين فى تعظيم البيت وحرماته وشعائره وما يقدم إليه ومن يفد إليه ، فقد كان ذلك فى فترة من الزمان بعدها نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٢) .

وانطلق على بن أبى طالب رضى الله عنه ليلحق بأبى بكر الصديق رضي الله عنه . فى العام التاسع الهجرى ليتلو على أهل الموسم من المسلمين والمشركين ما نزل فى براءة ، وبلغ أمر رسول الله ﷺ « لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد ، فعهده إلى مدته».

وما جاء العام العاشر حتى حج رسول الله ﷺ بالناس . وقد تطهر البيت من الشرك والمشركين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

---

(١) ابن كثير جـ ٢ ص ٥

(٢) سورة التوبة ٩ ٢٨

فحين نزل هذا النهى فى سورة المائدة التزم به المسلمون ، ومازالوا ملتزمين به بعد أن انتهى الشرك من جزيرة العرب ، وأصبح البيت الحرام ومشاعره قاصراً على أهل الايمان فحسب .

وإذا كنا قد عرفنا أنه لا تعارض بين ماهنا وما فى سورة براءة . فمن واجبنا أن نعرف هذه الأمور الخمس التي ورد النهى بها :

والأول منها ما نقرؤه فى قوله تعالى : « لا تحلوا شعائر الله » . فما هى شعائر الله ؟؟

قال ابن عباس : شعائر الله : مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة والهدى والبدن من شعائر الله .. وقيل : هى حرمات الله ، وقيل : فرائض الله ..

إذا تأملت معى فى معنى الشعائر لوجدت أنها جمع : شعيرة ، والشعيرة : هى العلامه البارزة على طاعة الله ، فكل ما كان دليلا وعنوانا على طاعة الله لا يحل لأهل الإيمان أن ينتهكوا حرمته ، بل الواجب عليهم تعظيمه والقيام بحقه عليهم.

وعلى هذا فكل ما ذكر فى معنى « شعائر الله » داخل فى هذا المعنى ، وإن كان ما قال حبر الأمة . ابن عباس أقربها ، نظراً لسياق الآيات وما يرشد إليه من أن هذه الشعائر التى ينهى الله عن انتهاكها إنما هى مناسك الحج .

وثانى تلك النواهى هو . الشهر الحرام .. فما هو الشهر الحرام ؟ هل هو شهر الحج فقط أو المراد به الأشهر الحرام التي جاء بها حديث رسول الله ﷺ كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض : السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . . » ؟؟ الظاهر أن المراد بها هذه الأشهر الأربعة ، ومعنى النهى عن إحلالها ، النهى عن القتال فيها وتعظيم ما حرم الله فيها . .

وقد علمنا أن هذا النهى عن القتال فى الأشهر الحرم كان إلى نزول آيات سورة التوبة التي ضربت الشرك فى مقتله ، وأنهت وجوده من جزيرة العرب ولهذا رأيت الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كما حكاه الإمام أبو جعفر .

والثالث ، والرابع من هذه النواهى هو : الهدى والقلائد . . والهدى : هو ما يهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة . والقلائد : جمع قلادة . وهى ما يوضع فى عنق الهدى من نعل وغيره . علامة على أنها خاصة بالبيت الحرام . لكن : ما معنى النهى عن إحلال الهدى والقلائد ؟ هل المراد عدم الاعتداء عليها وأخذها غصباً ؟ أو المراد ألا يتركوا الاهداء إلى بيت الله الحرام . فان فى الاهداء إليه تعظيماً لشعائر الله : «ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . . » وألا يتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز عن غيرها فلا يعتدى عليها أحد وتكون حافزاً لمن يراها أن يفعل كما فعل أصحابها ؟ ؟ هذا وذاك جائز .

وإذا كانت القلائد هى القلادة التي تعلق فى عنق ما يهدى للبيت . فان فى ذكرها هنا بعد الهدى دليلا على تأكيد حرمة الهدى وتعظيمه .

أما الخامس من هذه الأمور الخمس فهى ما جاء فى قوله تعالى : ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً . . »

فما المقصود « بآمين البيت الحرام ؟ ؟ هل هم المسلمون أو المشركون ؟ ؟

إن سبب نزول الاية الذي ذكرناه فيما سبق من أن الصحابة أرادوا أن يمنعوا الحطيم بن هند البكرى الذى كان قد أغار على سرح المدينة . ومر على المدينة معتمراً . فنزلت الاية تنهاهم عن ذلك . . سبب النزول هذا يبين المقصود بآمين البيت الحرام وأن هؤلاء هم المشركون . . ويؤكد هذا أيضاً أن المسلمين أرادوا أن يصدوا المشركين ويمنعوهم من القدوم للبيت معاملة لهم بالمثل حيث منعوهم فى العام السادس من دخول مكة فعقد صلح الحديبية . فنهاهم الله عن هذا وأمرهم ألا يمنعوا من جاء للبيت الحرام .

ومعنى أن المشركين « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » أى يطلبون الرزق والارباح فى التجارة ، والثواب من الله سبحانه، وهذا بحسب اعتقادهم فقد حكى القرآن عنهم قولهم في أصنامهم « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . .»[١]

وقيل هذا فى المسلمين ، ومعنى « يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً » على هذا واضح ، ولكن هذا القول يبعده سبب النزول .

وقبل أن نترك هذه الامور الخمسة يلزمنا أن نقف عندها لنرى عظمة القرآن وإعجازه ، وكيف نهى عن انتهاك الحرمات :

فقد جاء النداء الثانى عقب النداء الأول ، مفصولا عنه قائماً بذاته مبدوءاً بـ « ياأيها الذين آمنوا » استجاشة لشعور الإيمان ومقتضياته مرة أخرى، ودافعاً إلى التزام ما سينهى عنه الإله الذى آمن به المؤمنون .

وما نهى عنه : يبدؤه بقوله : « لاتحلوا » .. وهل يجرؤ مؤمن أن يحل ما حرم الله ؟ إن قوله : «لاتحلوا» يحمل فى طياته تهديداً ووعيداً لمن تحدثه نفسه أن يعتدى على حرمات الله .

وإذا ما وقفنا عند كل أمر من الأمور الخمسة . ماذا نرى ؟ نرى أن الأول منها : « شعائر الله .» وكم لكلمة « شعائر » من الجرس والإيقاع فى حس المؤمن ؟ وكم لها من دلالات على ماتحمله من العظمة والقداسة والمنزلة السامية إنها مظاهر للعبودية ؟ وعلامات بارزة على طاعة الإله . ولكن مهما قلنا في معنى كلمة «الشعائر» وأنها المظاهر أو العلامات ، فسوف تبقى كلمة«الشعائر» فى هذا المقام لها مكان مرموق يؤدى دوره فى النفس البشرية ويجعلها أقرب إلى استجابة نداء الإله العظيم . فاذا لاحظنا أن الكلمة مضافة إلى لفظ الجلالة « الله » وهو علم على الذات العلية ، عرفنا مدى ما فى إنتهاك حرمة تلك الشعائر من مخاطر ومزالق .

---

(١) سورة الزمر ٣/٣٩

هذا هو الأمر الأول ، أما الثانى : فهو الشهر الحرام . ولقد عرفنا ما هو الشهر الحرام ؟ وما معنى النهى عن إحلاله ، ولكن وصف الشهر بأنه حرام . هذا ما يسترعى النظر .. فان الزمان ظرف لما يقع فيه من أحداث ، وتلك الأحداث هى التى توصف بالحل والحرمة ، فاذا وصف بها الزمان كان هذا من باب المبالغة : وكأن وصف الحدث بالحلال والحرام قد سرى أثره إلى الزمان الذى وقع فيه ، فسمى الشهر بأنه شهر حرام . والثالث من هذه الأمور هو : الهدى : والهدى كما عرفنا هو الإبل والبقر والغنم التى تذبح فى الحرم على وجه التقرب لله تعالى . ولكن اختيار كلمة « الهدى » فيها من المعانى الكثير : فهى تدل على أن هذه الأنعام التى تذبح ليست كسائر ما يذبح ، إنها عنوان التقرب إلى الله ، إنها هدية للبيت ، إنها شىء خاص لا يجوز الإعتداء عليه .

ومن ذا الذى يعتدى عليه ؟ ؟ المؤمنون ؟ ؟ وأين إذن منزلة البيت من نفوسهم ؟ وأين هى مكانة رب البيت من قلوبهم ؟ إن الإعتداء على هذا الهدى يتنافى مع تلك المنزلة وهذه المكانة .

والرابع : القلائد . وفى اختيار تلك الشارة ما يلفت الأنظار إلى إحترامها وتعظيمها ، فتلك القلائد التى وضعت فى رقابها دليل على أنها شىء خاص ببيت الله الحرام . ومن حقها المحافظة عليها وعدم التعرض لها بسوء .

أما الأمر الخامس فهوما قال الله تعالى : «ولا آمين البيت الحرام ،يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ..» وإذا ماعرفنا أنهؤلاءهم المشركونالذين صدوا المسلمين عن البيت كان علينا أن ننظر كيف عبر القرآن عن هؤلاء المشركين ، وكيف أمر المسلمين بعدممنعهم من زيارة البيت.وهنا سنتبين عظمة هذاالدين وما فيه من المثل الإنسانية والمبادىء التى أسعدت البشرية ، ومازالت كذلك تحمل فىطياتها الخيرإلى يوم القيامة .. فمع أن هؤلاء مشركون قالفيهم :«آمين البيت الحرام .» وفى هـذا التعبير مايدل على تمام القصد وحسن التوجه ، وإخلاص النية فى الوصول إلى البيت الحرام ، ومع أنهم مشركون قال فيهم

« يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . » والإبتغاء : طلب مع جهد مبذول وسعى موصول ، وممن يطلبون هذا الرزق ؟ إنهم يطلبونه « من ربهم » : يطلبون من ربهم فضلا أى رزقا يأتيهم من تجارتهم فى مواسم الحج وغيرها ، ويطلبون منه رضوانا وثوابا .

وقد عرفنا أن المشركين لا ينكرون وجود الله . كما لا ينكرون أنه هو الخالق الرازق . المحيى المميت . قال تعالى : قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار . ومن يخرج الحى من الميت . ويخرج الميت من الحى . ومن يدبر الأمر . فسيقولون الله .. فقل أفلا تتقون .(١)

وكم لكلمة الرضوان هنا من معنى : إنها تمام الرضا . وما يستلزمه ذلك من ضراعة القلب وتعلقه بالله . حتى ينال صاحبه الرضا : والتعبير القرآنى : « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » فيه دليل تجدد هذا الطلب واستمراره . وكيف أن هذه حالتهم لا يكفون عنها ولا يتوانون فيها .

وبعد أن نهى عن إحلال هذه الأمور الخمسة عاد إلى ما كان قد حرمه على المحرم من قتل الصيد فقال : « وإذا حللتم فاصطادوا . » أى وإذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا ما شئتم (٢) .

وتأكيداً للأمان الذى جعله الله لمن قصد بيته قال : ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . » أى لا يحملنكم بغضكم لمن صدوكم عن المسجد الحرام على الإعتداء . ومن صدوهم عن المسجد الحرام هم أهل مكة حين وقفوا فى وجه الرسول وأصحابه ورفضوا أن يدخل المسلمون عليهم مكة رغم ما ساقه المسلمون من هدى ورغم أنهم جاءوا للبيت

---

(١) سورة يونس ٣١/١٠

(٢) سنعرف في النداء الثالث أن هذا مقيد بغير صيد الحرم أما صيد الحرم فلا يجوز لمحرم ولا لغير محرم ومن فعل ذلك فله جزاؤه .

زواراً وعماراً لا يريدون قتالا ، ولا شك أن هذا المنع كان له أثره فى نفوس المؤمنين . وهذا مادعاهم إلى أن يفكروا فى منع من جاء من المشركين معتمراً من مواصلة طريقه لمكة معاملة للمشركين بالمثل . ولكن الرسول قد عقد مع القوم صلح الحديبية . ولا بد من الوفاء ، ولهذا قال تعالى : «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعدلوا . » وقال: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

والقرآن يسوقها قضية عامة ، وقاعدة أصيلة لتكون من أسس معاملة الأمة الإسلامية لغيرها من الأمم .

وفى تعبيرات القرآن عن هذه القاعدة ما يدفع بها فى أعماق النفس المؤمنة فلا تمتلك أن تحيد عنها . : فهو يعبر عن الكراهة والبغض بالشنآن والشنآن شدة الكراهة وشدة البغض ، ويعبر عما يدفع إليه هذا البغض الشديد بقوله : (ولا يجرمنكم) وهو لفظ معبر كل التعبير عما يعتمل فى الصدور من كراهة للكفر والكافرين .

وحين يضيف الشنآن إلى القوم ، والمقصود بالقوم أهل مكة يريدها قاعدة عامة فيجعل القوم نكرة لتشمل أهل مكة وغيرهم .

ومع أن المسلمين يردون بعض ما وقع عليهم من عدوان ويصدون من صدهم عن البيت إلا أن الله قدجعل صد المسلمين للكافرين عدوانا فقال : « ... أن تعتدوا » .

أى لا يحملنكم ما حدث منهم على الاعتداء عليهم بمنعهم من القدوم إلى بيت الله الحرام ، وما ذلك إلا لأن المسلمين قد التزموا بعهد وموثق هو عهد الحديبية فلا يجوز لهم أن ينقضوه إلا إذا نقضه المشركون ، كما حدث — فيما بعد — وكان نقضهم للعهد سبباً لفتح مكة كما هو معلوم من سيرة الرسول عليه السلام وتاريخ المسلمين ..

وأخيراً يؤصل قاعدة أخرى هى أساس الحضارة الإنسانية والمشعل الذى

أنار به المؤمنون درب الحياة المظلم فأبصر النـاس الطريق وذلك إذ يقـول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ..

فما هو البر ؟ وما هى التقوى التي يأمر الله المؤمنين بالتعاون من أجل ايجادهما وتحقيقهما فى حياة المجتمع الإنسانى ؟ ؟

إن البر اسم جامع للخيرات كلها ، ومن أمثلة ذلك مانراه فى قول رسول الله ﷺ وقد سأله النواس بن سمعان عن البر والإثم فقال : البر : حسن الخلق ، والإثم : ماحاك في النفس و كرهت أن يطلع عليه الناس [1] .

وما نراه في قوله عليه السلام لوابصة : البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم : ماحاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك [2] .

وما نقرؤه فى آية البر تلك التى يقول فيهـا عز وجل رداً على افتراءات اليهود وإثارتهم للفتنة حين تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٣) .

فمن جمع هذه الصفات فهو البار ، ومجموع هـذه الصفات هو البر .. والبار هو المتقى .. ولهذا قيل : إن البر والتقوى لفظان مترادفان لمعنى واحد ، وإن

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، ومسلم والترمذى والحاكم والبيهقى عن النواس بن سمعان .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه عن وابصة .

(٣) سورة البقرة ٢ ١٧٧ .

كنت أميل إلى أن البر أقرب ما يكون فى معاملة الخلق ، والتقوى أقرب ما تكون فى معاملة الخالق ، ومن جمع بين حسن معاملة الخلق وحسن معاملة الخالق فقد استكمل الخير كله . ولهذا قال الماوردى : « إن في البر رضا الناس ، وفي التقوى رضا الله ، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته » .

وإذا كان الله قد أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى فقد نهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان فقال : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

والإثم : كما عرفناه من قول رسول الله ﷺ هو : ماحاك فى النفس وخفت أن يطلع عليه الناس .. إنه حالة الضعف التي تصيب النفس البشرية فتدفعها إلى التفكير — أحيانا — فى أمور لو اطلع الناس عليها لكانت موضع مؤاخذة وسخرية .. ولهذا يخفيها الانسان عن الناس .. ومن رحمة الله بالمؤمنين أنه لا يحاسبهم عما حاك فى صدورهم مادام لم يخرج لحيز الواقع والتنفيذ .. بل لو هم الواحد منهم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة .. كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك : فمن هم بحسنة ولم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » .

وما دمنا قد عرفنا أن الإثم الذي لم يخرج لمجال الواقع يثاب عليه صاحبه إذا كان قد امتنع خوفا من الله وحياءاً منه . فان العدوان الذي نراه فى الآية هو ماخرج للواقع .. فعلى من يكون هذا العدوان ؟

هل هو عدوان المرء على غيره أو عدوانه على نفسه .. الآية مطلقة شاملة لكل أشكال العدوان وألوانه .. والتعاون على الإثم والعدوان من أخطر ماتتعرض له الأمم .. إنه تهديد لأمنها ، وتدمير لكيانها ، وتحطيم لقواها .. وليس مجرد التفكير فى الخطيئة هو ما ينهى عنه رب العزة بل ماينهى عنه هو أن تتضافر جهود الجماعة على إقامة المنكر ، وأن تنسق خططها على أساس من الاعتداء والظلم وسلب الضعاف حقوقهم .

والجماعة المؤمنة مأمورة بالتعاون على البر والتقوى ومنهية عن التعاون على الإثم والعدوان : فتحاً لباب الخير كله ، وإغلاقاً لأبواب الشر كلها وبهذا تكون لها الريادة والقيادة إلى أبواب السعادة والسلامة والأمان للدنيا كلها . ويأمن الفرد فى نفسه من نفسه وتصبح الجماعة آمنة فى حاضرها ومستقبلها .

ويأتى ختام الآية أمراً فيه الكثير من الترهيب ، وذلك إذ يقول سبحانه : « واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » .

فكل ما سبق من أوامر ونواه تحتاج إلى حماية القلب المؤمن ، ورعاية النفس المطمئنة إلى ربها ، تحتاج إلى مداومة الرقابة لله ، والبحث عما يرضيه عز وجل ، ولهذا كان الأمر بالتقوى ، وكان ما يتبعها بل ما يتبع كل ماسبق فى الآية من الإخبار عن الله بأنه شديد العقاب . .

ومن يطبق عقاب الله الشديد ؟ ومن الذى يؤمن بأن لقاء الله حق ولا يخشاه ويتقيه ؟

هذا هو النداء الثانى ، وما ترتب عليه من وجوب التعظيم لبيت الله وعماره وما بنى على هذا النداء من صروح شامخة فيها السعادة والأمان لبنى الإنسان !

(حـ) صيد الحرم .. واصطياد المحرم
حكم ذلك وجزاؤه

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدي بعد ذلك فله عذاب أليم ، يأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً ، فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً واتقوا الله الذى إليه تحشرون » . (سورة المائدة ٥ / ٩٤ — ٩٦)

بنداء الإيمان ينادى الله المؤمنين ليحملهم مسئولية الإيمان ، وليضع هذا الايمان موضع الاختبار ، يقول الحسن البصري ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال (١) .

إنهم يحرمون ، والمحرم لا يحل له الاصطياد ، ولكن هذا اختبار صعب فقد أرسل إليهم الصيد : « تناله أيديهم » لأنه قريب منهم يمكن لهم أن يمسكوا به دون عناء أو صغير يستطيعون أن يتناولوه بسهولة .. وتنال رماحهم ما بعد منه كما تنال كبار الصيد .. فهل يقدمون على ارتكاب هذا المحظور ؟

لقد بين لهم ربهم أنه لايجوز لهم ذلك ، وأن هذا عنوان الخوف من الله فمن اعتدى بعد أن بين له ربه ما بين استحق العذاب الأليم ..

---

(١) كتاب اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ١٧٧ .

والآية على هذا خطاب للمحرمين .. وسبب النزول يوضح ذلك : « فقد قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا .. فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون » (١) .

وعن ابن عباس فى قوله تعالى : « ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » قال : « هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلى الله به عباده فى إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه » (٢) .

وقيل الآية خطاب لغير المحرمين ، لأن الآية بعدها أوضحت حكم المحرمين حين قالت : « يأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم » .

وعلى هذا فالصيد المحرم فى الآية هو صيد الحرم وهو لايحل لمحرم أو لغيره قال الإمام الشوكانى : اختلف العلماء فى المخاطبين بهذه الآية : « هل هم المحلون أو المحرمون ؟ فذهب إلى الأول مالك ، وإلى الثانى ابن عباس ، والراجح أن الخطاب للجميع ، ولا وجه لقصره على البعض دون البعض » (٣) .

وبمجموع الآيتين ، وماسبق فى أول السورة من قوله : « غير محلى الصيد وأنتم حرم » . وقوله : « وإذا حللتم فاصطادوا » . يتبين أن المحرم لا يجوز له الاصطياد فى أي مكان من البر كما سنرى فى الآية التالية : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم لكم صيد البر مادمتم حرما » .

فاذا أحل من إحرامه جاز له ذلك ، كما يتبين أن صيد الحرم لا يجوز لأحد أبداً محلا أو محرماً .. قال رسول الله ﷺ : « إن هذا البلد حرمه الله ولا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها » (٤) .

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٩٧ .
(٣) فتح القدير جـ ٢ ص ٧٧ .
(٤) أخرجه الشيخان .

وثبت فى السنة تحريم صيد المدينة على المحرم وغيره أيضاً : لما روى عن جابر عن النبي ﷺ قال : إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها (١) : لايقطع عضاهها (٢) ولا يصاد صيدها (٣) .

وأخرج البخارى عن على رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : المدينة حرم ما بين عير إلى ثور » (٤) .

وقد أوضحت السنة جواز قتل خمس من الدواب فى الحل والحرم للمحل والمحرم ، لما روي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة والكلب العقور »(٥) .

وفى رواية لمسلم ذكر الحية دون العقرب ، ووقع عند أبى داود بزيادة : « السبع العادي » أى الحيوان المفترس .

فما جزاء من قتل الصيد ؟؟

يقول تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره » .

---

(١) اللابتان : تثنية لابة : ومعناها : الحرة ، وهى أرض مكتسية بحجارة سوداء بركانية : إحداهما شرقى المدينة والأخرى : غربيها — فحرم المدينة ما بينهما عرضا .

(٢) العضاه : شجر الشوك .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) عير : جبل يقع بالقرب من ذى الحليفة : ميقات الإحرام . وثور : جبل صغير يقع وراء جبل أحد ، فحرم المدينة ما بينهما طولا .

(٥) متفق عليه .

فهو مخير بين أمور ثلاثة :

١ — أن يأتى بما يماثله من الإبل والبقر والغنم فيذبحه ويتصدق به على فقراء الحرم .

٢ — أن يقوم المثل دراهم ثم يشترى بها طعاما ويتصدق به على مساكين الحرم .

٣ — أن يصوم عن كل مد يوماً .

وقد حكم السلف فى النعامة ببدنه ، وفى بقر الوحش وحمار الوحش : ببقرة ، وفى الغزال بعنز وفى الأرانب بعناق(١) وفى اليربوع بجفرة(٢) وفى أنواع الحمام(٣) بشاة .

وهذا الذى حكم به السلف إنما هو فيما له مثل من النعم ، أما إذا لم يكن له مثل يشبهه منها فليس هناك سوى القيمة ، وهو مخير بين أمرين .

١ — أن يشترى بها طعاماً ويتصدق به على مساكين الحرم .

٢ — أن يصوم عن كل مد يوماً .

وإذا ما أعدنا قراءة الآيات لنرى كيف حرم الله صيد الحرم . والصيد على المحرم ، فاننا نلمح نور القرآن يشع مع كل كلمة فيهدى للتي هى أقوم، ويرسي فى النفس دعائم الإيمان ، ويتولى الإنسان المؤمن بألوان من الترغيب والترهيب حتي يصل به إلى مايرجوه له من عزة وكرامة حين يلتزم هذا الإنسان

---

(١) العناق : الأنثى من المعز من حين تولد مالم تستكمل سنة والمراد بها ما فوق الجفرة

(٢) الجفرة : الأنثى من المعز إذا بلغت أربعة أشهر .

(٣) المراد بالحمام : كل ما عب فى الماء وهو أن يشربه جرعاً . . والعرب تسمى كل مطوق حماماً

بمقتضيات إيمانه ، ويقف عند كل أمر ونهى مطيعاً لخالقه ، مستجيباً لكل ما أمر به ، منتهياً عن كل مانهى عنه . .

لقد بدأت الآيتان بنداء الإيمان ، وقد عرفنا فيما سبق سر هذا النداء بهذا الوصف بالذات ، ناداهم ليبين لهم أنه سيختبرهم اختباراً صعبا : سيرسل إليهم الصيد تغشاهم فى رحالهم : فلو شاءوا إمساك صغار هذا الطير لأمسكوه ولو شاءوا اصطياد كباره لاصطادوه ، ولكنه تعالى قد حرم عليهم ذلك لأنهم محرمون أو حرم عليهم فى الحرم ، والقرآن يعبر عن هذا بأنه « ابتلاء » ويجعل المبتلى والمختبر بهذا هو الله ، ويقسم هذا القسم المؤكد بكل ألوان التأكيد فيقول :

« ليبلونكم الله بشيء من الصيد . » ويظهر ما فيه من الابتلاء حين يقول: « تناله أيديكم ورماحكم . » ويبين الحكمة فى هذا فيقول : « ليعلم الله من يخافه بالغيب . » فكأن هذا التحريم مدرسة يتربى فيها المسلم على منهج الخوف من الله ، والمراقبة الدائمة له . . وليعلم المحرم أنه باحرامه قد تسامى بروحه فلا يليق به أن يؤذى طيرا أو حيوانا ، ولا يصح له أن يشتغل بلهو عما هو فيه من التجرد والإخلاص لله .

ومن تعود هذا ، ومن فهم هذا ، لا بد أن يعرف لأخيه الإنسان حقه ، وإذا كان الإعتداء على طير أو حيوان فيه العقاب الأليم ، فما بالك بالإعتداء على الإنسان ، وله حق الصلة ، إن لم تكن فى الأخوة فى الله وفى النسب وفى الجوار وفى الإنسانية فهى فى واحدة منها ، وليعلم من دخل حرم الله وحرم رسوله أنه دخل فى رحاب الأمان ، وولج إلى ساحة التربية الإلهية ليعود منها مزوداً بالأخلاق النبيلة والصفات العظيمة ، إنه لا يحل له أن يمد يده بالأذى لحيوان أو طير أو نبات ، وإن فعل أثم وتحمل مغبة فعله ، وأنى لمؤمن أن يستحل فى حرم الله وحرم رسوله ما حرم الله ورسوله ؟

وانظر إلى تعبير القرآن عما يتحمله من امتدت يده أو سلاحه لحيوان أو طير بأذى : « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . » فيجعل هذا اعتداءاً ، ويظهر عدم العذر فى هذا الاعتداء ، وما فيه من تهجم على ما أمر الله به حين يقول :

« فمن اعتدى بعد ذلك . » فقوله : « بعد ذلك » أى بعد هذا البيان الجلى الواضح ، وهذا الحكم الذى لا يحتمل التأويل ولا يتطرق إليه الاحتمال .

ويأتى قوله . « فله عذاب أليم » رادعاً لمن تسول له نفسه إرتكاب هذا الخطأ فى عبارة بليغة تحمل كل التهديد ، وذلك ما تلمحه من قوله . « فله » وتقديمها على « عذاب أليم » وكأن هذا عذاب مخصوص قد أعد لهذا المعتدى وهو عذاب لايعرف مقداره إلا الله ، وذلك ماتراه من تنكير كلمة « عذاب» إذا أضفنا إليها وصف العذاب بأنه « أليم » وهى من صنيع المبالغة تبين لناقدر هذا العذاب . هذا بالاضافة إلى اسمية الجملة . وفى هذا ما يدل على عدم ارتباط ذلك العذاب بزمان أو وقت محدود فكأنه عذاب ثابت دائم لا يعرف نهايته إلا الله القوى الجبار .

والآية التالية : « ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم . » تأكيد لحرمة الصيد على المحرم . إن قلنا إن الآية السابقة خطاب للمحرم . أو تأكيد لجانب منها إن قلنا إنها تعم المحرم وغيره وهي تأتى مفصولة عن الآية السابقة مبدوءة أيضاً بنداء الايمان . وبعدالنداء يأتى النهى «يأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيدوأنتم حرم » نهياً صريحاً يحرم على كل محرم قتل الصيدفى الحرموغيره .

وبعد النهى تحدثنا الآية عن جزاء من قتل الصيد فتقول : ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة . أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره .

مع أن العمد والخطأ سواء فى وجوب هذا الجزاء إلا أن فى ذكر التعمد هنا تنفيرا من إرتكاب ذلك وتشنيعاً على من فعله .

ومن الفقهاء من قال : إن من أخطأ بأن رمي شيئاً فأصاب صيداً . ومن نسي أنه محرم فاصطاد . لاشيء عليهما . ولكنا نميل إلى الرأى الأول . وهو رأى الأئمة الأربعة وكثير من الصحابة والتابعين وغيرهم من وجوب الجزاء على المحرم عامداً ومخطئاً وناسياً .

هذا الجزاء « يحكم به ذوا عدل منكم » وما سبق فيه حكم للسلف أخذ به . ومالم يسبق فيه حكم . حكم به رجلان عدلان من المسلمين . وهذا مارآه الشافعى وأحمد . وقال مالك وأبو حنيفة : « يجب الحكم فى كل فرد فرد . سواء وجد للصحابة فى مثله حكم أم لا لقوله تعالى : يحكم به ذوا عدل منكم .. »(١)

وحين يقول سبحانه : « هديا بالغ الكعبة » إنما يرشدنا إلى أن هذا ليس مجرد شاة تذبح ، إنما هو هدي : فهو — إذن — شعيرة من الشعائر : « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » . فليصنع به ما يصنع بالهدى من الارسال إلى مكة والنحر هناك والإشعار والتقليد .

وفى وصف هذا الهدي بأنه « بالغ الكعبة » .. دليل على أنه لايجوز أن يذبح فى غير الحرم فكل مكان فى الحرم يحقق بلوغ هذا الهدى إلى الكعبه ؟

وفى هذا الوصف أيضاً : تعظيم للهدى ، وتعظيم للكعبة .

وفى الأمر الثانى : « أو كفارة : طعام مساكين » . نلمح شيئين هامين :

أولهما : تنفير المؤمن من مواقعة هـذا المحظور ، وذلك ماتراه فى اختيار كلمة « كفارة » فالتكفير لا يكون إلا من ذنب .

وثانيهما : جعل هذه الكفارة : طعام مساكين ، وفى هذا الاطعام تعويد على البذل والعطاء ، وتجريد للنفس من نزعة العدوان التى دفعت صاحبها إلى قتل الصيد ، وفى هذا الإطعام كذلك غرس لخلق الرحمة والمحبة والعطف على البؤساء ، وكلها معان سامية يعود عليها الاسلام أتباعه كلما حانت لذلك فرصة وتلك المعانى يغرسها الاسلام وهو يوجب فى الكفارة إطعام مساكين سواء كانوا مساكين الحرم فيمن اشترط ذلك أم مساكين موضع الصيد أو أقرب موضع إليه إن لم يكن فيه مساكين كما قال الامام مالك .

تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٠٠

ويأتى الأمر الثالث : « أو عدل ذلك صياماً » بأن يصوم عن كل مد يوماً ليكون معادلا لسابقيه من الهدى أو الإطعام ، وليتربى المؤمن — بالصوم — على كبح جماح النفس وإلزامها بتعاليم الله ، فان النفس لا تتجاوز حدودها ، ولا يضطرب بها المسير إلا فى فترات الضعف التي تعتريها ، وهى بذلك فى حاجة إلى مايقويها ويثبتها أمام عواصف الشهوة والهوى ، والصيام خير مدرسة يتعلم فيها المؤمنون كيف يثبتون أمام الشدائد ، وكيف يقفون فى وجه موجات الضعف البشرى التي تدفع إلى ارتكاب ماحرم الله .

وبعد تلك الأمور الثلاثة التي جعلها الله لمن قتل الصيد يقول سبحانه : ليذوق وبال أمره » .

وكم فى هذا القول من تنفير للمؤمن أن يرتكب تلك الجريمة .. فان الذوق لا يكون إلا فى الأمور الحسية فاذا جعل العقوبة التي يتحملها من قتل الصيد شيئاً يذاق ، وكأنها أمر محسوس ملموس دل هذا على قسوة السخرية والتهكم بمن فعل ذلك . وهذا قوله تعالى لمن يصلى أشد أنواع العذاب فى الجحيم : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١) .

وماذا يذوق ؟ إنه يذوق وبال أمره . والوبال : سوء العاقبه ، والمرعى الوبيل الذي يتأذي بعد أكله ، وطعام وبيل : إذا كان ثقيلا لا يستساغ .

إذا أمعنت النظر فى قوله : ليذوق وبال أمره . ووقفت عند كلمة «أمره» لوجدت فيها تشنيعا على من فعل ذلك . فانها توحى بأن هذا أمر خطير وحدث جليل وخطب جسيم ، على من فعله أن يتحمل عاقبة فعله .

أما قوله تعالى : « عفا الله عما سلف » . أى ما كان منكم قبل الاسـلام فى الجاهلية أو ما وقع منكم قبل نزول هذا الحكم ، أو ما حدث منكم فتبتم عنه وكفرتم بالهدى أو الإطعام أو الصيام ، فان رحمة الله واسعة ، وقد غفر لكم ذلك وعفا عنكم .

---

(١) سورة الدخان ٤٤/٤٩ .

ومع أن هذه الفقرة من الآية يبدو فيها عفو الله ، وتظهر فيها رحمته بخلقه إلا أنها مع ذلك تحمل فى طياتها تبشيعاً للجرم الذى إرتكب حتى إحتاج إلى عفو الله ، وحتى عبر عنه بقوله : «عما سلف .» فالتعبير «بعما سلف» دليل على أنه أمر كبير يجب ألا يعود إليه عامل ، ولذلك قال : ومن عاد فينتقم الله منه.

فمن عاد إلى ارتكاب ما حرم الله من قبل الصيد وجب عليه الجزاء الذى سبق تفصيله من الهدى أو الاطعام أو الصيام ، وكلما وقع منه لزمه الجزاء .

ولكن التعبير عن هذا بأنه إنتقام ينتقمه الله من هذا المخالف ، قد يوحى بأن المسألة ليست مجرد هدى أو إطعام أو صيام ، يختار منها مايشاء كلما عاد لعقله ولكنها أكبر من ذلك ، فهذا العود المتكرر يدل على استهتار منه بما نهاه الله عنه أو أمره به ، ولعل هذا هو مادعا ابن عباس رضي الله عنهما أن يقول : «من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلما قتله ، فان قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة . فان عاد يقال له : ينتقم الله منك كما قال الله عز وجل .

وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وابراهيم النخعى (١) .

ولكن الجمهور على أن من قتل وهو محرم أو قتل صيداً فى الحرم وجب عليه الجزاء لا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر يستوى فى ذلك الخطأ والعمد .

ويأتى ختام الاية : «والله عزيز ذو انتقام» مقرراً لحقيقة قائمة فى نفوس أهل الايمان ، ومذكراً لهم بما لربهم من قوة واقتدار . فهو سبحانه عزيز : لايغلبه غالب ولا يمنعه ممن أراد منه الانتقام مانع . وهو عز وجل . ذو إنتقام : يعاقب من عصاه : لا يسأل عما يفعل .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٠١ .

وكم فى هـذا الختام للاية من زجر وتخويف لكل من تسول له نفسه أن يتعدى حدود الله ، فيقتل صيداً نهاه الله عن قتله ، وكم فيها من إرهاب لكل من تعدى حدود الله وانتهك محارمه .

وإذا ما انتقلنا إلى الآية التالية : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صـيد البر مادمتم حرما ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون » .

لوجدناها تنفى العذر عمن اصطاد ما حرم الله وترك ما أحل ، فان ما أحله كثير وكثير ..

فاذا كان سبحانه قد حرم على المحرم أن يصطاد فى أى مكان فى البر فقد أحل له أن يصطاد من البحر ما شاء وأن يأكل من هذا الصيد لحماً طرياً أو أن يجعله قديداً ولحماً محفوظاً يحمله معه فى أى مكان ويأكل منه كيفما شاء . . كما أن تحريم ما فى البر إنما هو تحريم مؤقت : إنه تحريم فى حالة الإحرام ، فاذا أحل من إحرامه جاز له أن يصطاد من البر ما يشاء مادام فى غير الحرم .

والآية فى تعبيرها عن هـذا الحكم ذات دلالات وإيحاءات : فهى تأتى وكأنها إجابة عن سؤال سابق نشأ من الآيتين السابقتين مجمله : إذا كنت ياربنا قد ابتليتنا واختبرتنا بتحريم الصيد فى الحرم : محلين ومحرمين ، وبتحريمه فى غير الحرم مادمنا محرمين : فهل هذا التحريم ينطبق على كل ما نصطاده ؟ فقال عز وجل : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما » .

وفى صيد البر وطعامه وردت أقوال كثيرة .. منها : أن صيده : مايصطاد منه طريا ، وطعامه ما يتزود منه مليحاً يابساً ، وعن ابن عباس : أن صيده ما أخذ منه حياً : وطعامه ما لفظه ميتاً . . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : أن طعامه : كل ما فيه .

ومن هـذه الآيه أخذ جمهور العلماء حكم حل ميتة البحر ، كما استدلوا

بحديث أبي هريرة ، وفيه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء : فان توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ، فقال رسول الله ﷺ : هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته .

وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل ، وأهل السنن الأربع وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم [1].

وللجمهور أيضاً أدلة أخرى من الأحاديث الصحيحة وكلها تؤكد أن أكل ميتة البحر حلال . والبحر مطلق ويراد به هنا كل مكان فيه ماء : بحراً وبحيرة ونهراً وعيناً وغيرها ، فاذا وجد فى هذا الماء ما يصطاد كان هذا جائزاً للمحرم ولغيره ..

وقد بين لنا ربنا ما فى ذلك من النعمة فقال : « متاعا لكم وللسيارة » أى أحل الله لكم هذا متاعا لكم : تأكلونه غضاً طرياً فى حال إقامتكم ، ومتاعا للسيارة : أى المسافرين يجعلونه قديداً ويحتفظون به ويأكلونه .

وتأكيداً لحرمة الاصطياد فى البر التي نصت عليها الآيتان السابقتان قال سبحانه : « وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً » .

فما دام محرماً يحرم عليه أكل ما صيد فى البر . .

لكن : هل المحرم من هذا الصيد هو ما اصطاده بنفسه واصطاده له غيره ، أو يحل له ما صاده غيره مادام لم يشارك فى اصطياده بقول أو فعل ؟؟

بالرأى الثانى قال جمهور العلماء .. وفى هذا حديث أبى قتادة حين صاد حماراً وحشياً وكان أبى قتادة حلالا لم يحرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا فى أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : هل كان منكم أحد أشار إليها وأعان فى قتلها ؟ قالوا : لا ، قال : كلوا ، وأكل منها رسول الله ﷺ .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٠٢

وهذه القصة ثابتة أيضاً فى الصحيحين بألفاظ كثيرة (١).

وإذا كان الله قد حرم هذا على المحرم فهل هناك من يستطيع أن يفرض عليه هذا العقاب المذكور فى الآيات ؟ ؟

لا أحد يستطيع أن يفرض عليه ذلك إلا إيمانه الحى وقلبه الجياش بالتقى ، وصلته الوثيقة بربه تلك التي تدفعه إلى المحافظة على إحرامه حتى يؤدي نسكه . .

ولهذا كان ختام الآية : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » .

فقد أمرهم بالتقوى مطلقاً — ويدخل فيها دخولا أولياً المحافظة على ما أحل الله والابتعاد عما حرم — ولفت أنظارهم إلى ما يدفعهم لخشية الله والخوف منه فقال : الذى إليه تحشرون ، فهم يحشرون إلى الله لا إلى غيره : وكم فى هذا الحشر من كشف للمستور ؟ وكم فيه من تخويف وزجر لكل من يتعدى حدود الله ويجرؤ على مخالفته .

ومرة أخيرة : هذا الجزاء فى الدنيا والآخرة لكل من تسول له نفسه أن يقتل صيداً فى الحرم أو من يقتل صيداً وهو محرم فى الحل والحرم ، فما بالك بأن يقتل إنساناً أو من يعتدى على كرامة البشر أو من يستحل دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ؟ إنه إن فعل ذلك لابد أن يذوق وبال أمره ، ولابد أن يعلم أن هناك خطراً على إيمانه وإسلامه ، فالمسلم — كما قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه — أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، وكل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه (٢) .

والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم (٣).

---

(١) ابن كثير ج ٢ ص ١٠٤

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن

(٣) أخرجه الترمذي والنسائى .

(د) الكعبة : وتعظيمها

قال تعالى : « جعل الله الكعبة : البيت الحرام :قياماً للناس، والشهر الحرام، والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم ، اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ، ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »

(سورة المائدة ٩٩،٩٨،٩٧/٥

إن الله عز وجل حين خلق الخلق لم يتركهم سدى ، يتخبطون فى دروب الحياة ومتاهاتها دون دليل ، فأرسل إليهم الرسل ، وأنزل الكتب ، وجعل لهم معالم ينتهون إليها ، وحواجز تحجب الظالم عن المظلوم ، وتمنع القوى من العدوان على حق الضعيف ، ومن ذلك : الكعبة المشرفة المعظمة . .

والكعبة كما قال الله تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ،مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . . »

ولقد واكب الكعبة جملة معان ، وصاحبها عدة مثـــل وقيم ومبادىء ، استقرت كلها فى ضمير بنى الإنسان من يوم أن خلق الله الإنسان وجعله مستخلفا فى هذه الأرض . . فما هى هذه المعانى ؟ وما هى تلك المثـــل والقيم والمبادىء التى انبعثت من وجود الكعبة فى هذا المكان من أرض الله ؟ ؟ إن الله سبحانه جعل هذه الكعبة وهذا البيت « مثابة للناس وأمناً » وجعلها وما حولها حرما آمناً : يفد إليها الحجيج فى كل العصور ، ويجتمعون عندها من كل مكان فيجدون فى رحابها الأمان والسلام ، والخيرات والبركات . . وكان لابد للوافدين لها من زمن محدد معين لا يعتدى فيه أحد على أحد: توضع فيه الحروب ، وتترك فيه العداءات ، فكانت الأشهر الحرم ، وكان لابد للقام

---

(١) سورة آل عمران ٩٧،٩٦/٣

من علامة وشعار يرشد الناس إلى أنه متوجه إلى البيت الحرام فكانت الهدى، وكانت القلائد دليلا واضحاً على أن هذا شيء خاص ببيت الله فاكتسبت كما اكتسب صاحبها الأمان، ولم يجرؤ أحد أن يمد يده إليها أو إلى صاحبها بسوء.. وكان هذا سبباً فى قدوم الوفود من كل مكان إلى هذا البيت لا تخشى عدوانا، ولا تخاف ظلماً، فكانت الكعبة وما تبعها من الشهر الحرام والهدى والقلائد سبباً فى انتظام الحياة وقيامها على الوجه الصحيح.

وجاء الإسلام فوحد هذه المعانى التى يشع بها بيت الله فأكدها وقررها وأدخلها فى منهجه بعد أن نقاها وطهرها من لوثات الجاهلية وحماقاتها وجهالاتها وما ألصقته ببيت الله من خرافات وأوهام وضلالات..

فلننظر فى الايات الثلاثة التي حدثتنا عن هذه المعانى لنرى كيف عظم الله بيته، وجعل هذا التعظيم باباً تلج منه النفوس إلي ما يريده الله لبنى الانسان من سعادة وسلام ومحبة ووئام..

فقد قال تعالى: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس..» فهو سبحانه أوجد الكعبة فى هذا المكان من يوم أن أوجدها: تحمل الخير للناس وجعلها وسيلة تقوم بها حياتهم، وتنتظم بها أمورهم، روى عن ابن عباس رضى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة[1]

وإذا كان الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ففى هذا إشعار بما لها من عظيم المنزلة ورفيع المكانة، وما تستحقه من التكريم والتقدير.. وإنما حازت مكة هذا الفضل بوجود بيت الله فيها، وإنما كانت حرما آمنا تكريماً للكعبه وتشريفا لها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقد سمى الله الكعبه بهذا الاسم : لأنها جاءت على غير المعهود فى بناء العرب فهى مربعه وبيوت العرب مدورة ، أو سماها بهذا الاسم : لأنها مرتفعه على ما سواها ، والعرب تطلق على كل شىء بارز كعبا ، ومن ذلك : كعب القدم ، وكعوب القنا . وكعب ثدى الفتاة .

كما سماها الله بيتاً : لأن لها سقفاً وجدراً وهى حقيقه البيت وإن لم يكن به ساكن ووصف هذا البيت بأنه حرام ، لما رأيناه من تحريم الله له . وتحريم البلدة التى هو فيها . فلا يجوز الاعتداء عليه . ولا يجوز أن يسفك فيه دم . أو يعتدى فيه على أحد . ولا يجوز تنفير صيده ولا قطع شجره . وبهذا التحريم وتلك الحرمه أمن الناس وانتظمت حياتهم . كما كان من أسباب انتظام حياتهم ما جعله لهم من الشهر الحرام . وهذا الشهر يطلق على الأشهر الحرم كلها : ذى القعدة . وذى الحجه . والمحرم . ورجب . فكان الواحد لو وجد قاتل أبيه فى الحرم لا يستطيع أن يهيجه أو يمد له يداً . .

كما كانت الهدى الذى يهدى للحرم علامة على ما يجب لهـــذا الهدى من الحرمه والتعظيم . وكانت القلائد عنوانا بارزا على أن تلك الأنعـام المقلدة بتلك القلائد هدى للبيت الحرام وعلى أن من أخذ من لحاء الحرم فتقلد به قادم من بيت الله فيجب ألا تمتد له يد بأذى . .

« وقد روى عن قتادة أنه قال فى قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . قال : حواجز أبقاها الله بين الناس فى الجاهليه . فكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب . وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه . وكان الرجل لو لقى الهدى مقلداً وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذا أراد البيت قلادة من شعر فحمته ومنعته من الناس . وكان إذا نفر تقلد قلادة من الأذخر أو السمر فتمنعه من الناس حتى يأتى أهله . حواجز أبقاها الله بين الناس فى الجاهلية . . (١)

---

(١) فتح القدير ج ٢ ص ٨٠

إذا ما توقفنا عند كلمات القرآن التى عبرت عن هذه المعانى ، فماذا تلمح من أسرار وأنوار ؟ ؟ سنلمح أنه عبر عن إيجاد الكعبة لما وجدت له بالجعل واذا كان بالجعل هنا معناه . الايجاد ، فهذا يوحي بمالها من خصوصية اختلفت بها عن سائر البيوت وسائر المبانى ، فهى قد صارت وتحولت بمجرد بنائها إلى كعبة يؤمها الناس ، وبيت يطوفون حوله ، وملتقى يجتمعون عنده قلباً وقالباً ، أبدانا وأرواحاً ، فيأمن خائفهم ، ويربح تجارهم وتقوم على ذلك حياتهم ، والذى جعلها كذلك هو الله عز وجل .

وفى إظهار اسمه الأعظم هنا ما يرشد إلى قيمة هذا الجعل ، وأنه يتناسب مع عظمةالله وقدرته وحكمته وجلاله .

وفى تسميتها « كعبة » مايدل على أنها جاءت على غير المعهود فى بناءالعرب فهي بارزة ظاهرة مرتفعة على ما سواها ، فلها بذلك ميزة خاصة ، وفى تسميتها البيت الحرام : دليل على تلك الميزة ، وأنها إذا كانت على غير المعهود فى بناء العرب ، وكانت مرتفعة على ما سواها فلها صيغة البيت من الجدران والسقف ولكنه بيت من نوع فريد . إنه بيت حرام : حرم فيهالعدوان والقتل والإيذاء لا يجوز الإعتداء عليه أو الانتقاص من حقه . ولا يصح أن يقصدة أحد بسوء وإلا أهلكه الله وأذله وانتقم منه .

وقد جعل الله الكعبة وما تبعها من الشهر الحرام والهدى والقلائد «قياماً للناس » أى سبباً تقوم عليه حياتهم . وكأنها العمود الذى ــ بدونه ــ تسقط جوانب الخيمة . أو هى الأساس الذى يشاد عليه البناء .

« والناس » من هم ؟ هل هم العرب ؟ أو هم كل البشر ؟ قال تعالى ممتنا على قريش : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم.»[1]

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٦٧

وقال سبحانه : لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . .(١)

فيكون المقصود بالناس هنا هم قريش خاصة .ومن يأتى للحرم من أنحاء الجزيرة عامة . أو تكون الآية دعوة للانسانية كلها للدخول فى حمي الإله . والانضواء تحت حكمه . والإنتفاع بما شرع من وسائل . وما يرسم لعباده من منهج تنتظم به أمورهم وتستقر به أحوالهم ؟ ؟ هذا كله جائز فى معنى الآية . وجائز فى المراد بالناس .

والتعبير القرآنى يفصل بين الكعبة وما تبعها من الأمور الثلاثة بقوله تعالى: « قياماً للناس » وما هذا إلا لأن الكعبة هى الأساس . وما ذكر بعدها من الشهر الحرام والهدى والقلائد أمور نشأت من وجود البيت في هذا المكان فكأن الكعبه هى الركيزة الأولى التى قامت بها حياة القوم . وهى السفينه التي سارت بهم إلي بر النجاة .

والشهر الحرام نشأ من حاجة القوم إلى فترة أمان يأمنون فيها على حياتهم وأموالهم حتى يتمكنوا من القدوم إلى البيت ، فهم حين يأتون إليه يقطعون على ظهور الإبل البوادى والقفار ، والليل والنهار ، والسفر على هذا الحال يدفع إلى العدوان ، وييسر الوسائل لإراقة الدماء ، ولهذا كان إختيار زمان معين في العام يحرم فيه القتل والقتال . فكانت الأشهر الحرم ثلاثة للحج متوالية هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وشهر للعمرة هو شهر رجب،فالشهر الحرام يفسره قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ،فلاتظلموا فيهن أنفسكم[٢] .

ويفسره قوله ﷺ فى حجة الوداع : « إن الزمان قد إستدار كهيئته يوم

---

(١) سورة قريش ١٠٦ (٢) سورة التوبة ٣٦/٩

خلق الله السموات والأرض : السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . . »(١)

أما الهدى والقلائد : فقد عرفنا روعة التعبير القرآنى فيهما ونحن نستشف أسرار هذا القرآن فى الاية الثانية من سورة المائدة : موضوع هذه الايات .

وإذا كان الله قد جعل الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد وسائل إسعاد للناس وأسباب راحة واطمئنان وأمان ورقى وإزدهار ، وإذا كان الله قد جعلها أسساً تشاد عليها حياتهم فلا شك أن هذا أمر عال وغال ، وله منزلته وتقديره ، إنه أمر تقدر ما فيه من الفوائد والمنافع نفوس عامرة بالله ، مرتبطه بهديه : إنه يكشف لنا عن جانب من جوانب الحكمة الإلهية التى تخلق ما تخلق وتوجد ما توجد ، وتشرع ما تشرع لحكم وغايات ، قد يكشف عنها الحاضر الملموس أو المستقبل القريب أو المستقبل الضارب فى أعماق الزمن ، ولهذا قال سبحانه : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم » .

فأشار بقوله « ذلك » إلى ما سبق من جعله لهذه الأمور الأربعة وسائل حياة للناس لما فى هذه الأمور من علو الدرجة وبعد المنزلة فى نظام الحياة الإنسانية .

وفيما ذكره سبحانه بعد اسم الإشارة كشف لجانب من جوانب حكمته فيما أوجد ، وبيان يلفت العقول المفكرة إلى علم الله المحيط لما فى السموات وما فى الأرض ، فسبحانه من إله عليم حكيم حين جعل الكعبة مصدر حياة للناس ، فقد كان هذا حكمة رأينا آثارها ولمسناها واقعاً مشهوداً وعبر عن

---

(١) أخرجه البخارى مسلم

هذه الحكمة أصدق تعبير قوله سبحانه : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم » ..

ولا يخفى عليك أن قوله تعالى : « أن الله بكل شيء عليم » تعميم بعد تخصيص يرشدنا إلى تمام علمه وشموله وإحاطته .

وهذا الإله العليم الحكيم جدير أن يرهب وأن تصان حدوده ومحارمه ، فمن استحل ما حرم الله ، ومن اعتدى على ما للكعبة من حق التعظيم ، ومن انتهك حرمة الشهر الحرام أو الهدى أو القلائد فلينتظر انتقاماً مروعاً ، وعذاباً قاسياً ، إلا إن تاب ورجع وأناب فان رحمه الله لا يبخل بها على المستغفرين المنيبين ، وهذا ما نراه فى قوله تعالى : « إعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم » .

فكما رأينا أثراً من آثار حكمته ماثلا فى الكعبة وما تبعها فشهدنا له سبحانه بالعلم التام ، وعرفنا مدى حكمته فيما شرع ، فلنعلم أن هذا الإله الحكيم العليم شديد العقاب لمن انتهك محارمه واستمرأ المعصية ، وهو — أيضاً — غفوررحيم لمن تاب وأناب .

لكن من لم يتب ولم يرجع عن غيه وبغيه وعدوانه هل يسأل عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؟

هل يستطيع عليه السلام أن يهدى من أضل الله ؟ تأتى الآية التالية تطمئن الرسول العظيم ﷺ وتهدد الظالمين المعتدين على حرمات الله ، الرافضين لنداء الحق فتقول : « ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

فرسول الله ليس مكلفاً بهداية القوم ، وليس له أن يجبرهم على الايمان ، إنما هو مكلف — فقط — بتبليغ وحى الله إليهم ، أما هم فقد لزمتهم الحجة ، ولن يغيب عن الله ما يظهرون من الملاينة والمراوغة أو المكر والدهاء ، كما لن تخفى عليه ما اشتملت عليه صدورهم من الضيق والحسد والحقد والكراهية لله ولرسوله ، فهو سيجازيهم بهذا كله .

إن لم يفيئوا إلى ظلال الإسلام الوارفة ، وإن لم يعظموا حرمات الله وشعائره ، « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » ولن تقبل منهم هذه التقوى إن لم يكن منبعها إيمان كامل صادق بالله ورسوله وإسلام تام لله رب العالمين .

وبهذه الآيات عرفنا كيف عظم الله بيته ، وكيف رفعه إلى المنزلة العالية الباسقة تحقيقاً لحكمته فيما أراد لعبادة من الخير العميم والنفع الجزيل . فسبحانه من إله حكيم عليم خبير . .

الفصـل الثـالث

من أحكام الحج ومعاييره

فى سورة البقرة

قال تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقو رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فاذا أمنتم ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب . . الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ، فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ، واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » .

(سورة البقرة ٢ / ١٩٦ — ٢٠٣)

جاءت هذه الآيات من سورة البقرة تبين بعض أحكام الحج وتقرر عدة

معايير ومبادىء وقيم ومثل تفرد بها هذا الدين العظيم . وجاء بها ليرسي دعائم الحق فى أرض الله ، وليربط الإنسان بخالقه ، فيؤدي هـذا الإنسان وظيفة الإستخلاف فى الأرض مستنيراً بهدى الله ، مستضيئاً بنور الوحى الربانى .

وقد جاءت هذه الآيات وما قبلها وما بعدها فى سورة البقرة إقراراً للمنهج الإلهي فى تعهد الأمة المسلمة بالتربية والرعايه والتوجيه : فقد ذكر لنا ربنا قبل تلك الايات صفات الإنسان البار ونادى الأمة المؤمنة ففرض عليها القصاص فى القتلى وبين لهـا أحكام الوصية وأحكام الصيام كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل وبين أن الأهلة مواقيت للناس والحج كما دعا إلى الجهاد فى سبيل الله وأمرنا أن نقاتل المشركين حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، ووضع أساس الجهاد حين أمر بالإنفاق فى سـبيل الله : فان إعداد المجاهدين يستلزم بذل المال الكثير ، وإذا شح الناس بأموالهم هلكت الأمة وتعرضت للدمار ، ولهذا قال : « وأنفقوا فى سبيل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . فالإحسان مطلب أهل الايمان ، إنهم يبذلون غاية وسعهم لتأتى هذه الأحكام التى أمرهم الله بها على خير ما يحب ربهم ويرضى ، إنهم يجعلون من إحسانهم فى أداء أعمالهم وسيلة ينالون بها رضا مولاهم الذى أخبرهم بأنه يحب المحسنين . .

وعلى طريق هذا الإحسان يأمرهم الإله الكريم ويوضح لهم ما يجب عليهم أن يلتزموا به إذا ما أرادوا الحج والعمرة ، ويبين لهم بعض أحكام الحج ومعاييره فيقول : « وأتموا الحج والعمرة لله » الايات . .

فلنتابع هذه الأحكام وتلك المعايير كما نطق بها الوحى الإلهي وأوضحتها ألفاظ القرآن الكريم والسنة النبويه المطهرة المشرفة .

١ — وأتموا الحج والعمرة لله . .

إن هذه الأحكام بدأت بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » . . فما المقصود بإتمام الحج والعمرة ؟ وما معنى أن يكون هذا الإتمام لله ؟؟

إن الأمر لا يرد باتمام شيء إلا إذا كان قد بدىء فيه .. ولهـذا اتفق العلماء على وجوب إتمام مناسك الحج والعمرة إذا ما أحرم بهما المؤمن ، بدليل قوله بعد هذا الأمر : « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى » .

يقول ابن عباس : « من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما : تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل » .. وعنه أيضاً أنه قال : « الحج عرفة والعمرة الطواف » (١) .

أما قبل الشروع فيهما فليس فى الاية دليل على وجوب الحج والعمرة ، فاذا ما أردنا أن نعرف حكم كل منهما فعلينا أن نبحث عن أدلة أخرى .. وحينذاك سيتضح لنا أن الحج واجب وركن من أركان الإسلام ، وأن العمرة سنة ، وأن وجوب الحج ليس موضع خلاف إنما موضع الخلاف هو العمرة هل هى واجبة أو مندوبة ؟

وقد قال بالوجوب جمع من الصحابه والتابعين منهم : على وابن عباس وابن عمر وعائشة وزين العابدين وطاووس والحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء ، وهو المشهور عن الشافعى وأحمد ، وحجتهم فى هذا ماروى عن أبى وزين العقيـــلى أنه أتى النبى ﷺ فقال : إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا النطق (أى السفر) فقال : حج عن أبيك واعتمر . . »(٢)

وفى هذا يقول الإمام أحمد : لا أعلم فى إيجاب العمرة حديثاً أجود من هذا ولا أصح منه . . ، ومن أدلتهم على الوجوب أيضاً ماروى عن عائشة قالت : قلت يارسول الله : هل على النساء من جهاد ؟ ؟ قال : نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة . »(٣)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣٠

(٢) رواه الخمسة وصححه الترمذى .

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وإسناده صحيح .

أما من قال بأنها سنة مؤكدة تؤدى مرة واحدة فى العمر : فهم الحنفية والمالكية ، وحجتهم فى هذا إقتصاره ﷺ على الحج فى بيانه لأركان الإسلام الخمس كما أن ذلك ما نراه فى قوله تعالى . ولله على الناس حج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا ، فقد إقتصر على الحج أيضاً ولم يذكر العمرة ، ومن أدلتهم أيضاً ما روى عن جابر أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أخبرنى عن العمرة : أواجبة هى ؟ فقال : لا ، وأن تعتمر خير لك[1]

يقول الإمام الشوكانى بعد أن ساق كثيرا من أدلة الفريقين : « والحق عدم وجوب العمرة لأن البراءة الأصلية لاينتقل عنها إلا بدليل يثبت به التكليف ولا دليل يصلح لذلك ، لاسيما مع إعتضاءها بما تقدم من الأحاديث القاضية بعدم الوجوب . . (٢)

وإذا كان معنى إتمام الحج والعمرة إتمام أفعالهما بعد الشروع فيهما ، فما معنى أن يكون هذا الإتمام لله ؟ ؟

إن هذا تأصيل لقاعدة إسلامية تنبنى عليها حياة الإنسان المسلم ، تلك القاعدة هى الإخلاص لله فى السر والعلن ، وطلب مرضاته فى كل قول وفعل ، وفى كل حركة وسكون . وتفسيراً لهذا الإخلاص فى أداء الحج والعمرة

---

(١) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ، ولكن فى إسناده الحاج بن أرطاة وهو ضعيف ، وتصحيح الترمذى له فيه نظر ، لأن الأكثر على تضعيف الحجاج ، واتفقوا على أنه مدلس .

(٢) نيل الأوطار ج٤ ص ٣١٤ ط مصطفى البابى الحلبى بمصر ـ الطبعة الأخيرة سنة ١٩٧١ م .

(٣) ساق الشوكانى فى كتاب المناسك بعض الأحاديث فى أن العمرة تطوع ولكنه عقب على تلك الأحاديث بالتضعيف .

نجد كثيراً عن عبارات أئمة السلف : منها قول مقاتل : إتمامهما ألا يستحلوا فيهما ما لا ينبغى ، ومنها قول بعضهم : إتمامهما : إنفاق الحلال الطيب فى سفرها ، ومنها ماروى عن على وابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس أنهم قالوا : إتمامهما أن تحرم من دويرة أهلك . . وقريباً من هذا ماروى عن سفيان الثورى أنه قال : إتمامهما أن تحرم من أهلك لاتريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت : لوحجبت أو اعتمرت . .

يقول ابن كثير : «وذلك يجزى ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره(١)» وكان عمر رضى عنه ينهى عن الإعتمار فى أشهر الحج ويرى أن هذا من تمامهما ، وذلك ليكثر الوافدون لبيت الله الحرام على إمتداد العام . وهذا ما رواه القاسم بن محمد ، وقتادة فهما يقولان : إن العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة ، ولكن يرد على هذا بفعل الرسول ﷺ : فقد « اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعده : عمرة بالحديبية فى ذى القعدة سنة ست وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانه فى ذى القعده سنه ثمان وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معاً فى ذى القعدة سنه عشر ، وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته » ، ولكن قال لأم هانىء : عمرة فى رمضان تعدل حجه معى ، وماذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى .

٢ ــ فان أحصرتم فما استيسر من الهدى :

هذا هو الحكم الثانى فى الاية وهو الإحصار . فما هو الإحصار ؟ وماذا يفعل المحصر ؟ ؟ الإحصار : هو المنع . . فهل كل ما يمنع المحرم من الوصول لمكة يوجب الفداء والقضاء وهل يمكن أن نقول : إن من تمكن من الوصول وأدى بعض المناسك ومنع من البعض يعتبر محصراً ؟ وماذا سمي الفقهاء من لم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣٠

يدرك وقت الوقوف بعرفة سواء كان ذلك بعذر أم بغير عذر ؟ وماذا يفعل هذا وذاك .

يرى الأحناف أن الحصر يتحقق بالمنع من الوصول إلي مكة بعد الإحرام بعدو أو مرض أو غيرهما ودليلهم في هذا قوله تعالى : « فان أحصرتم .. فقد قالوا : هناك فرق بين الإحصار والحصر . الإحصار : يكون بالمرض ونحوه ، والحصر يكون بالعدو ، والذى فى الاية هو الإحصار ، إنما يدخل فيه حصر العدو لأن العذر بالعدو فى المنع أقوى ، وما رآه الحنفية هو الموافق لما قال أهل اللغة ، فقد قال ابن العربى : هذا رأي أكثر أهل اللغة ، وقال الزجاج : إنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال أبو جعفر النحاس : على ذلك جميع أهل اللغة ، ويؤيد الحنفية فى ذلك ماأخرجه أصحاب السنن الأربعه بأسانيد صحيحه عن عكرمه قال : سمعت الحجاج بن عمرو الأنصارى يقول : قال رسول الله ﷺ : من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل ، قال عكرمة : سألت ابن عباس وأبا هريرة عن ذلك فقالا : صدق .

ويرى الشافعيه وأهل المدينه : أن المراد بالحصر فى الآيه هو المنع بالعدو بدليل قوله : فاذا أمنتم » .
والأمن يكون من العدو ، أما الأمن من المرض ونحوه فبعيد ، كما أن الآية نزلت عام ست فى الحديبية حين منع المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه من دخول مكة لأداء العمرة ، فيكون الحصر بالعدو هو المقصود لاغير ولا يلحق به غيره ..
وفى هذا يقول ابن عباس : لاحصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال الله تعالى : «فاذا أمنتم فليس الأمن حصراً » [1] :

وإنما يتحقق الاحصار بالمنع من الوقوف بعرفة والطواف ، وهذا عند

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣١

الحنفية ، وعند الشافعية يتحقق بالمنع بالعدو من الوقوف أو الطواف أو السعى.

وإذا كان هذا هو الإحصار فان هناك الفوات أيضاً وهو قريب من الاحصار ، وذلك بأن يطلع فجر يوم النحر ولم يقف المحرم بعرفة سواء كان ذلك بعذر أم بغير عذر ، فقد قال ﷺ : « الحج عرفة » (١) .

فمن لم يحضر وقت الوقوف فاته الحج .

فماذا يفعل المحصر ؟ وماذا يفعل من فاته الوقوف بعرفة ؟

أما بالنسبة للمحصر فقد قال تعالى : «فان أحصرتم فما استيسر من الهدى» أى فما تيسر من الهدى ، فعليه أن يذبح شاة فى موضع إحصاره كما قال الشافعية أو يبعثها للحرم لتذبح عنده أو يبعث بثمنها لتشترى به ثم تذبح هناك كما قال الحنفية على ألا يتحلل إلا بعد مرور وقت كاف يمكن للهدى أن يصل فيه للحرم ويذبح تحقيقاً لقوله تعالى : «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله» وبذبح الهدى يتحلل من احرامه ، وقال الشافعية : لا يتحلل إلا بعد الذبح والحلق أو التقصير بدليل فعله صلى الله عليه وسلم لذلك يوم الحديبية ، وبفعله اقتدى أصحابه رضى الله عنهم :

وإذا كان المحصر قد تحلل من احرام حج واجب أو عمرة واجبة وجب عليه القضاء ، فان كان ما تحلل منه غير واجب فعند الحنفية يجب القضاء ، وعند الشافعية لا يجب .

ومن فاته الوقوف بعرفة عليه أن يتحلل بعمرة بأن يطوف ويسعى ثم يحلق أو يقصر ، وعليه الحج من قابل إذا كان الذى فاته هو الحج المفروض ، أما النفل فعند الأئمة الأربعة يجب عليه القضاء ولقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وذلك عام فى الحج والعمرة فرضاً أو نفلا ، وفى رواية عن مالك وأحمد : أن النفل لا قضاء فيه . .

---

(١) رواه البخارى .

ومع التحلل بالعمرة والقضاء هل يجب عليه هدى ؟ عند الحنفية : لاهدى عليه ، وعند الأئمة الثلاثة : يجب عليه هدى يذبحه فى حجة القضاء ، وذلك لما رواه مالك فى موطئه بسند صحيح : أن أبا أيوب الأنصارى خرج حاجا حتى إذا كان بالنازية من طريق مكة أضل رواحله ، وأنه قدم على عمر بن الخطاب يوم النحر فذكر ذلك له فقال عمر : أصنع كما يصنع المعتمر ثم قد حللت فاذا أدركك الحج قابلا فاحجج وأهد ما استيسر من الهدى .

٣ — ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله :

وهذا هو الحكم الثالث فى الآية : فما صلته بالحكمين السابقين : هل هو تابع لقوله : وأتمو الحج والعمرة لله ، أو لقوله : فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ؟

جمهور العلماء يرى أن هذا النهى تابع لقوله : وأتموا الحج والعمرة لله ، لا لقوله : فان أحصرتم فما استيسر من الهدى . . لأن المحصر يذبح هديه فى موضع الاحصار ولا يجب عليه أن يبعث بهديه إلى الحرم هكذا فعل رسول الله ﷺ حين أحصر فى الحديبية .

وقد رأى الأحناف — كما سبق أن بينا — أن المحصر يجب عليه أن يبعث شاة تذبح عنه فى الحرم أو يبعث بثمنها لتشترى به ثم تذبح هناك ولا يتحلل إلا بعد أن يمضى وقت يتمكن فيه من يأخذ الشاة أو يشتريها من الوصول للحرم وذبحها عنده . .

وقد أجاب الحنفية عن نحره ﷺ فى الحديبية بأن طرف الحديبية من الحرم فالرسول صلى الله عليه وسلم ذبح الهدى فى الحرم .

وأما من قال إن هذا النهى تابع لقوله : وأتموا الحج والعمرة لله . فقد رأى أن الحلق يأتى بعد إتمام أفعال الحج والعمرة لمن كان قارنا أو بعد الفراغ من أحدهما لمن كان مفرداً أو متمتعا ، فقد ثبت فى الصحيحين عن حفصة أنها قالت يارسول الله ماشأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال:

« إني لبدت رأسي وقلدت هدبى فلا أحل حتي أنحر » . ومحل نحر الهدى كما قال تعالى : « لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق » .

وعلى هذا نستطيع أن نفهم حكم الترتيب بين الحلق والذبح ؟ ومن الواضح أن هذا الترتيب واجب ويؤيده فعله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال : « خذوا عنى مناسككم » . كما يؤيده قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (١) .

فقضاء التفث هو إزالة الشعر وقد جاء بعد الذبح فدل على وجوب الترتيب وهذا رأى الأحناف فمن قدم الحلق على الذبح وجب عليه دم تأخير ، وقد ذهب الشافعى وصاحبا أبى حنيفة إلى أن هذا الترتيب سنة ، ومن ترك السنة فقد أساء ولكن ليس عليه فداء ودليلهم فى هذا ماروى عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل يوم النحر وهو واقف عند الجمرة فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمى ؟ قال : أرم ولا حرج ، وأتاه آخر فقال : إنى أفضت إلى البيت قبل أن أرمى ؟ فقال ، أرم ولا حرج وفى رواية عنه « أنه شهد النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم النحر فقام إليه رجل فقال : كنت أحسب أن كذا قبل كذا ، ثم قام آخر فقال : كنت أحسب أن كذا قبل كذا ، حلقت قبل أن أنحر ، نحرت قبل أن أرمى ، وأشباه ذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أفعل ولا حرج .. لهن كلهن ، فما سئل يومئذ عن شىء إلا قال : أفعل ولا حرج » (٢) .

عن ابن عباس : « أن النبي ﷺ قيل له فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير فقال : لا حرج ..(٣)

---

(١) سورة الحج ٢٢/٣٣ ، ٢٨ ، ٢٩

(٢ ، ٣) متفق عليه .

وهذا أيضاً رأي المالكية : فقد رأو أن الترتيب بين الحلق والذبح غير واجب ، فلو فعل واحداً منهما قبل الآخر جاز وليس عليه شيء .

وبالحق يحصل التحلل الأول فيحل له كل ما كان محظوراً عليه إلا الجماع فانه لا يجوز له إلا بعد طواف الإفاضة . وبه يتحلل التحلل الثانى .

٤ — فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك :

هذا حكم من حلق رأسه بعد إحرامه وقبل أن يأتى الوقت المعلوم لإزالة شعره ؟ وهو فى هذه الحالة عليه فدية يخير فيها بين أمور ثلاثة : الصيام: ثلاثة أيام ، أو الصدقة : ثلاثة آصع لستة مساكين ، أو النسك : شاة .

وفى هذا حديث البخارى بسنده إلى كعب بن عجرة إذ قال لمن سأله عن الفدية من صيام : « حملت إلى النبي ﷺ والقمـــل يتناثر على وجهى فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا ، أما تجد شاة . قلت : لا قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام وأحلق رأسك، يقول كعب : فنزلت فى خاصة وهى لكم عامة .

وهذه الفدية لمن كان منكم مريضاً مرضاً يؤدى به إلى حلق رأسه أو من كان برأسه أذى كما رأينا من حال كعب بن عجرة . أما العامد الذى لا عذر له ، وأما المعذور بغير المرض والأذى كالناسى والجاهل بالحكم والمكره فقد أختلفت فيهم أقوال الأئمة :

فالأحناف : يرون أن الواجب على هؤلاء الدم عينا أو الصـــدقة عينا على حسب جنايتهم إلا أنهم قالوا بسقوط الإثم عن المعذور بغير المرض والأذى وإن وجب عليه الفداء . والأئمة الثلاثة : جعلوا العامد كالمعذور مخيرا بين الأمور الثلاثة ، أما المعذور . بغير المرض والأذى فعليه الفداء مخيرا عند المالكية، وعليه الفداء مخيراً بين الشافعية والحنابلة إن كانت الجناية فيها إتلاف كالحلق

والتقصير وتقليم الأظافر ، وليس عليه شيء فيما ليس فيه إتلاف كاللبس وتغطية الرأس والطيب .

وهذه الفقرة من الآية هي القاعدة التي بنى عليها الأئمه آراءهم فيما يجب على المحرم من الفداء إذا مالبس شيئاً غير ملابس الإحرام ، أو غطى رأسه ، أو حلقها ، أو قصرها ، أو قلم أظافره ، أو تطيب أو أدهن نخالف بذلك مايجب عليه حال الإحرام .

وتفصيل القول في هذا مرجعه إلي كتب الفقه ، وحسبنا هذا القدر في بيان معنى قوله تعالى : فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . » وإن كان قد بقى علينا أن نعرف المكان الذي يؤدى فيه الفداء : يقول الشوكانى(١) : « إختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء : ماكان من دم فبمكة ، ومن كان من طعام أو صيام فحيث شاء ، وبه قال أصحاب الرأى ، وقال طاووس والشافعي : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث شاء ، وقال مالك ومجاهد : حيث شاء في الجميع ، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان . »

٥ — التمتع والقران :

قال تعالى : « فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن يكون أهله حاضرى المسجد الحرام . »

حين نقرأ قوله تعالى :فاذا أمنتم» نتساءل : مم يكون الأمان ؟ هل الأمان من العدو خاصة أو منه ومن غيره كالمرض ونحوه .. المتبادر من سياق الآية ومن معنى الأمن أن الأمن لا يكون إلا من العدو خاصة . وهذا مايؤيد رأى الشافعيه وأهل المدينه الذين قالوا : إن الإحصار لا يكون إلا من العدو أما المرض وغيره فالمنع به لا يسمى حصرا .

---

(١) فتح القدير جـ١ ص١٩٦ ط الثانيه ١٩٦٤م - مصطفى البابلى الحلبي بمصر

وبعد الأمان وزوال الخوف على المحرم أن يتم نسكه . فما هى الصورة التى أحرم بها .. هل أحرم بالحج فقط [وهذا هو الإفراد] أو أحرم بالحج والعمرة معا (وهذا هو القران) أو أحرم بالعمرة فى أشهر الحج ، وبعد أن طاف وسعى حلق وتحلل ، وانتظر إلى يوم التروية فى مكة « وهو اليوم الثامن من ذي الحجه » فأحرم بالحج ، (وهذا هو التمتع)وهو التمتع الخاص والمشهور من كلام الفقهاء ، والقران والتمتع كلاهما يسمى التمتع العام ، لأن القارن إستفاد عمرة مع حج فى سفرة واحدة كما أن من أحرم بالعمرة فأداها وتحلل تمتع بما كان محظوراً عليه أثناء إحرامه ولما جاء يوم التروية أحرم بالحج فاستفاد أيضاً حجاً وعمرة ، ولذلك لا يجب على المفرد فداء إنما يجب الفداء على القارن والمتمتع بأن يذبح كل منهما ما استيسر من الهدى وأقله شاه، وله أن يذبح البقر لأن النبي ﷺ ذبح عن نسائه البقر وكن متمتعات .

ووقت ذبحه يوم النحر بمنى وقبل الحلق عند الحنفية ، وعند الشافعية : وقت الوجوب يبدأ من الإحرام وله أن يذبح بعد أداء العمرة ولكن الأفضل ذبحه يوم النحر للاتباع وخروجا من الخلاف ..

فاذا لم يجد الهدى : إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، « فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » . فمتي يصوم هذه الأيام الثلاثة ؟ وإلام يكون الرجوع ؟ هل هو رجوع إلى رحله وأمتعته أو رجوع إلى أهله ودياره ؟

قال العلماء : الأولى أن يصوم الأيام الثلاثة قبل يوم عرفة فى العشر ، وقال ابن عباس : يجوز له أن يصومها من حين إحرامه ، والأفضل كما رأى جلة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وعلى أن يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة ، أما يوم العيد فلا يجوز صيامه ، وذلك لما ورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم النحر (١) .

---

(١) متفق عليه ..

كذلك أيام التشريق لا يجوز صيامها لما رواه مسلم عن نبيشة الهذلى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله .

ومن فاته الصيام قبل العيد تحلل ووجب عليه دمان : دم التمتع ودم التحلل قبل نحر الهدي عند الحنفية ولا يلزمه سوى قضاء صومها عند الشافعية .

وإذا كان قد صام الأيام الثلاثة فقد بقى عليه صيام سبعة أيام . فمتي يصومها ؟ يقول الله تعالى : « وسبعة إذا رجعتم » . . فلم يذكر إلى أى شيء يكون الرجوع؟ هل هو رجوع إلى الرحال أو رجوع إلى الأهل والديار والأوطان؟.

بالأول قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح . وبالثانى قال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم حتى حكى ابن جرير الإجماع على ذلك ويؤيدهم فى هذا ماروات البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للناس حين قدم مكة في حجة الوداع : من كان منكم أهدى فانه لايحل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه ، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » .

وبصيام الثلاثة والسبعة تكمل العشرة ، ولذلك قال : «تلك عشرة كاملة» وهذا من باب التأكيد كما تقول : كتبت بيدى ، وسمعت بأذنى ، وكما قال تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه » (١) وكما قال : « ولا تخطه بيمينك »(٢).

وقال الزجاج : إنما قال سبحانه : « تلك عشرة كاملة » مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة ، لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام فى الحج والسبعة إذا رجع .. وقال المبرد : ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شيء بعد ذكر السبعة (٣) .

(١) الأنعام ٦/٣٨ (٢) العنكبوت ٢٩/٤٨

(٣) فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ١٩٧ .

وهذا التمتع وما فيه من الفدية لغير أهل الحرم أما هم فلا تمتع لهم قال تعالى: « ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » .

يقول ابن عباس : يا أهل مكة لامتعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً ثم يهل بعمرة (١) .

وقد اتفق العلماء على أن أهل الحرم لامتعة لهم ولكن هل هذا خاص بأهل الحرم أو يلحق بهم من فى حكمهم كمن هم دون المواقيت كما قال عطاء ومكحول أو من كان من الحرم على مسافة لايقصر فيها الصلاة كما قال الشافعية . . لكل وجهه .

وختاما لهذه الايه يقول سبحانه : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وتقوى الله والخوف منه لهما هنا أهميتهما : إذ لا تؤدى أعمال الحج على وجه التمام والكمال ، إلا إذا قام بها المؤمن منبعثاً من إيمان عظيم بالله وماله من صفات الجلال والكمال . . وأى سلطة وأى قوة فى الأرض غير سلطان الله وقوته لا يمكن لها أن تدفع الإنسان إلى أداء تلك الأعمال في إخلاص وحب مهما أوتيت هذه السلطة وتلك القوة من مال وجاه وسلاح .

ومن لا يتقى الله ولا يخشاه ؟ ومن يجرؤ على مخالفة أمر مولاه ؟ إن الذى لا يتقى ربه ولا يخشاه ، والذى يتعدى حدود خالقه ومولاه : جاهل غافل أحمق وعليه أن يتبصر مواضع أقدامه قبل أن يخطو خطوة واحدة فى طريق معصية الله ، وعليه أن يعرف قدر الإله الذى سيقدم عليه لا محالة ، لابد أن يعلم هذه الحقيقة قبل أن يخالف أوامر ربه ، ولهذا قال سبحانه : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٥

ومن ذا الذى يطيق هذا العقاب ؟ ومن ذا الذى لا تحسب له ألف ألف حساب ؟ إلا إذا كان من الغافلين .. وهل تغني الغفلة عن أهلها فى مواقف الندامة والحسرات ؟ وهل تنفع هؤلاء ما يسكبون يوم اللقاء من العبرات ؟ !

٦ — الميقات الزمانى . . وبعض ما يجب على المحرم :

قال تعالى :

« الحج أشهر معلومات : فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون ياأولى الألباب » .

بعد أن بين لنا ربنا بعض أحكام الحج ومعاييره ، أراد أن يؤدبنا ببعض الآداب الربانية ، وأن يجعل من الحج فرصه لتدريب المؤمنين على مكارم الأخلاق ، والسمو النفسي ، والرفعه فى الشعور والسلوك فقال : الحج أشهر معلومات . . الآية .

والاية من بدايتها تبين لنا أن الحج غير العمرة : فالعمرة يمكن أن تتكرر فى العام الواحد عدة مرات ، ويمكن أن تؤدى فى أي وقت ، أما الحج فهو مرة واحده فى العام ، له مدة محددة وأشهر معلومات : لا يجوز التقديم عليها ولا التأخير عنها بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تخفى على أحد . . تلك الأشهر هى : شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجه ، ولهذا لو أحرم بالحج فى غير هذه الأشهر لا ينعقد إحرامه ، بهذا قال الشافعى وابن عباس ، وعند الأئمة الثلاثه : يجوز الاحرام بالحج فى جميع أيام السنه إلا أن الإحرام به فى أشهره أكمل .

فمن أحرم بالحج فى أشهره وجب عليه أن يتم مناسك الحج كما عرفنا ذلك لقوله تعالى . . . وأتموا الحج والعمرة لله . . وهذا معنى الفرض فى قوله تعالى : فمن فرض فيهن الحج . . أى من ألزم نفسه بالحج « بالشروع

فيه بالنيه : قصداً باطنا ، وبالإحرام : فعلا ظاهراً ، وبالتلبية : نطقاً مسموعاً ، وقال أبوحنيفة : إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه ، وقال الشافعى : تكفى النية فى الإحرام بالحج . . (١) من فرض ذلك على نفسه دخل فى تجربة من تجارب الإيمان ، وولج طريقا له آدابه وشروطه ، فاذا ما نجح فى تجربته ، وإذا ما سلك الطريق ملتزماً بتلك الاداب والشروط فقد فاز ونجا ورجع من حجه كيوم ولدته أمه . وهذه الاداب وتلك الشروط . هى ما نقرؤه في قوله تعالى : فلارفث ولافسوق ولاجدال في الحج.

والرفث : هو الجماع ودواعيه والتحدث به فى حضرة النساء . والجماع قبل لوقوف بعرفة : مفسد للحج باجماع العلماء ، وعلى من فعل ذلك : الاستمرار فى حجه الفاسد إلى نهايته ، والقضاء فى المستقبل — ولو كان حجه نفلا ، وذبح شاة فى حجة القضاء ، أما بعد الوقوف وقبل التحلل الأول : فلا يفسد حجه عند الحنفية وعليه بدنة ، وعند الأئمة الثلاثة : يفسد حجه وعليه بدنة . أما بعد التحلل الأول : فلا يفسد حجه وعليه شاة . أما مقومات الجماع : فان كانت مباشرة : كالقبلة واللمس بشهوة والمباشرة بغير جماع وجب عليه شاة ولايفسد حجه ، وإن كانت غير مباشرة : كالنظر والفكر بشهوة فلا شيء عليه.

هذا هو الرفث ، أما الفسوق : فهو الخروج على طاعة الله . وكلمة الفسوق كلمة عامة تشمل كل معصية ، ولهذا نرى فى بيان مدلولها عدة أقوال للعلماء : فمنهم من يقول : الفسوق : هو الذبح للاصنام قال تعالى : قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فانه رجس . أو فسقاً أهل لغير الله به .(٢)

ومنهم من يقول : الفسوق هو التنابز بالألقاب . قال تعالى : ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .(٣)

---

(١) فتح القدير للشوكانى ج ١ ص ٢٠٠
(٢) سورة الأنعام ٦ ١٤٥
(٣) سورة الحجرات ٤٩ ,١١

ومنهم من يقول : الفسوق : سباب المسلم ، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .»(١)

ومن قال بأنها عامة فى كل معصية أصحاب الحقيقة .

« والجدال » المجادلة والمخاصمة والمنازعة مع الرفاق وغيرهم .

وكم فى الإبتعاد عن هذه الأمور الثلاثة من تربية وتدريب على الطاعة والإخلاص وحسن الخلق وكريم الخلال .

وقد نهى الله عنها فى أبلغ صورة : فهو يبين لنا من البداية أن المؤمن هو الذى ألزم نفسه بأداء هذه المناسك حين أقدم على أداء ما أفترضه الله عليه من حج بيته ، أو ماندبه إلى الإكثار من الحج والزيارة لهذا البيت العتيق . ومثل هذا المؤمن جدير به أن يبتعد عن المعاصي ، خاصة فى هذا الموقف العظيم ، لهذا ساق إليه ما نهاه عنه في صورة النفى تأكيداً لهذا النهى وحثاً للمؤمن على تنفيذ أوامر ربه . وكأنه قال : هذه أمور لا تنبغى للمؤمن فكيف بمن عقد النية على طاعة مولاه ، فانتهوا عن هذه الأمور الثلاثة .

وبالانتهاء عن تلك الأمور . بالإبتعاد عن الشهوات والمعاصى ، والمخاصمة والمنازعة مع الآخرين تصفو النفس ويرق الشعور ، وينفتح القلب على معان لم يكن ليعرفها من قبل . إنه مستعد للخير يؤديه خالصا لوجه الله الكريم ، ولهذا حث عليه سبحانه بعبارة تحمل الكثير من الايحاءات والدروس فقال . « وما تفعلوا من خير يعلمه الله . « وكيف لا يعلمه وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟ وكيف يخفى عليه شيء من أمر العباد وهو الذى لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

والمؤمن واثق من هذا تمام الوثوق ، ويعرف أن ربه هو المطلع على ماقدم

---

(١) متفق عليه .

من خير ،وهو الذى سيجازيه على ذلك أعظم الجزاء ، فلينشر المؤمن لواء خيره على الناس جميعاً ، وليتهز فرصة هذا الموسم الكريم ليفيض خيراً وبراً وعطفاً وسخاء فيروى المحرومين لأن ذلك كله لا يضيع عند علام الغيوب .

وإنها لمناسبة طيبة يرشد الله فيها عباده إلى التزود بخير الزاد ، ولذلك قال : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

وقد روى في سبب نزول هذا الأمر عدة روايات : منها ما أخرجه البخارى وأصحاب السنن عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فأنزل الله : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

ومنها ما رواه ابن جرير عن نافع عن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زاداً آخر فأنزل الله تعالى : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك .

وعن ابن عباس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس [1].

فهو بهذا يضع معياراً ثابتاً للتوكل ، ولا يرضى للمؤمنين التواكل ، فما داموا قد عزموا على أداء مناسك الحج فعليهم أن يستعدوا له بالزاد الذى يكفيهم فى ذهابهم وإيابهم ، وفى هذا تنبيه إلى شرط هام من شروط وجوب الحج وهو الإستطاعة ، وقد عرفنا شيئاً من ذلك ونحن نتدارس قول الله تعالى: « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

ولكنه حين يذكر هذا الزاد ينبهنا إلى الزاد الحقيقى وهو التقوى ، وإذا كان

---

(١) انظر ابن كثير ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

من الواجب على المؤمن أن يتزود بالطعام والشراب وغيره لسفر قصير لا يستمر غير أيام قلائل ، فما بالك بالسفر الطويل فى رحلة الآخرة :

أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد ؟؟

فعلى المؤمن العاقل البصير أن يغترف من هذا الزاد ما يعينه على هذا السفر الطويل فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ولذلك جاء في ختام الآية : « واتقون يا أولى الألباب » .

فبعد أن رغب فى التقوى أمر بها موجهاً النداء لأولى الألباب وهم أصحاب العقول الراجحة والبصائر النيرة ، والأفئدة الواعية ، فهؤلاء هم الذين يدركون حقيقة ما إليه يصيرون ، فيحملون له من تقوى الله والخوف منه ما به يفوزن .

٧ – التكسب فى الحج – والإفاضة من عرفات – والوقوف عند المشعر الحرام :

قال تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

يحمل مطلع هاتين الآيتين جانباً من رحمة الله بخلقه ، وما فى هذا الدين من يسر ، وذلك برفع الحرج عمن ابتغى الرزق والتكسب فى موسم الحج رغبة فى تحصيل الخيرين : الكسب الحلال ، والحج المبرور .

وكم تبدو لنا هذه الرحمة الإلهية واضحه حين نقرأ : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » .

والفضل هو الرزق من التجارة وغيرها من أنواع الكسب ، وابتغاء ذلك : طلبه والبحث عنه .

والجناح : هو المؤاخذة على الفعل ، وفى نفى ذلك نفى لتلك المؤاخذة ، والكلمة تشعر بأنه قبل نزول هذه الآيه كان هناك حرج .. فما سبب هذا الحرج ؟؟

إن المولى حين أمر بالتزود للدار الآخرة ، وجعل أيام الحج لحظات يملأ فيها المؤمن جرابه فضلا وثواباً وقرباً وربحا وفيراً وخيراً جزيلا كأن النفس المؤمنة تحرجت من العمل فى الحج ورأت أن العمل قد يصرفها عن التفرغ للعبادة ، وأن التجارة قد تؤدي أحياناً إلى الجدال والمخاصمة في زيادة السعر ونقصه فيخالف العبد بذلك ما نهاه عنه ربه من الجدال فى الحج ، هذا بالإضافة إلى ما فى مزاولة التجارة من إلهاء وتشاغل عن ذكر الله ..

ولهذا ورد عن ابن عباس أنه قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى موسم الحج يقولون : أيام ذكر فأنزل الله : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم .

وروى عن أبى أمامة التيمى قال : قلت لابن عمر : إنا أناس نكرى فى هذا الوجه إلى مكة وإن أناساً يزعمون أنه لا حج لنا فهل ترى لنا حجاً ؟ قال : ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسك ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فأنتم حجاج ، ثم قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ . فسأله عن الذى سألت فلم يدر ما يعود عليه ، أو قال : فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » فدعا الرجل فتلاها عليه وقال : أنتم حجاج »(١).

كما أن هناك سبباً آخر لهذا الحرج يذكره ابن عباس فيما رواه البخارى عنه قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى الموسم فنزلت : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » فى مواسم الحج .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

ولا يخفى عليك أن التكسب والعمل فى موسم الحج لا يقصد لذاته ولا تتجه النية إليه ، إنما يقصد المؤمن ثواب ربه وأداء نسكه وتعظيم شعائر ربه ، فان قصد التجارة والمال والدنيا وحدها فهو وما قصد ، وقد « إتفقوا على أن التجارة إن أوقعت نقصاً فى الطاعة لم تكن مباحة ، وإن لم توقع نقصاً فى الطاعة كانت مباحة وتركها أولى لقوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »(١) والإخلاص هو أن يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة ، والحاصل : أن الإذن فى هذه التجارة جار مجرى الرخص »(٢).

وبعد أن نفى الحرج عمن ابتغوا الفضل من ربهم أمرهم بذكره عند المشعر الحرام فقال: فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين . »

والإفاضة : هى الدفع بكثرة ،وأنت تعرف أن « الحج عرفة » وأن عرفات موضع يتجمع فيه الحجيج فى وقت واحد بلباس واحد ينادون رباً واحداً لبيك اللهم لبيك ، وأن هذا الجمع الحاشد يتحرك بغروب شمس اليوم التاسع إلى المزدلفه للمبيت بها وهناك يقفون عند المشعر الحرام .

ولو وقفت تلقى النظر على جموع الحجيج وقت إنصرافها من عرفات لرأيتهم كالسيل الجارف فى تدفقه وجريانه . ومن هنا كان تعبير القرآن عن ذلك : بالإفاضة من عرفات ، وعرفات : تعرفها ولا تخفى عليك .وقد وردت الروايات الكثيرة فى سبب تسميتها بهذا الاسم يقول الألوسي : « سمى هذا المكان المخصوص بلفظ ينبيء عن المعرفة : لأنه نعت (أى وصف) لابراهيم عليه السلام فعرفه . روى ذلك عن على كرم الله وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أو لأن جبريل كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال : قد عرفت . روى عن عطاء . أو لأن آدم وحواء إجتمعا فيه فتعارفا :

---

(١) سورة البينة ٩٨/٥

(٢) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ط الاستقامة بالقاهرة فى رمضان ٩٧٧ هـ / ط ج ١ ص ١٥٩ .

روى عن الضحاك والسترى . أو لأن جبريل عليه السلام قال لآدم فيه : إعترف بذنبك وإعرف مناسكك : قاله بعضهم . وقيل سمى بذلك : لعلوه وإرتفاعه . ومنه عرف الديك »(١) لارتفاعه .

وكل هذا يحتاج إلى دليل وإثبات . فالأصح أنه من الأسماء المرتجلة . وهى لا تعلل بعلة ولا يذكر لها سبب .

والمشعر الحرام هو المكان المرتفع بالمزدلفة المسمى « بقزح » والوقوف عند المشعر الحرام لا على المشعر الحرام ، وهو بذلك شامل للمزدلفة كلها ولا يختص بهذا الموضع بالذات فقد روى عن ابن عمر أنه رأى الناس يزدحمون على « قزح » فقال علام يزدحم هؤلاء ، كل ماههنا مشعر ، وعنه أيضاً : المشعر الحرام المزدلفة كلها »(٢) .

والمشعر هو العلامة البارزة ، فالوقوف عنده شعيرة وعلامة ظاهرة على طاعة الله ، ووصفه بالحرمة لأنه من الحرم ، وفى الوقوف عنده ثلاثة أقوال للعلماء : أحدها أنه ركن فى الحج لا يصح إلا به ، والثانى : أنه واجب يجبر تركه بدم ، والثالث : أنه مستحب لا يجب بتركه شىء .

والأمر بذكر الله عند المشعر الحرام يكون بالتلبية والتهليل والتحميد والدعاء والصلاة ، ويستمر ذلك إلى أن تسفر الشمس فيفيض الناس إلى منى لرمى جمرة العقبة الكبرى فى يوم عيد النحر .

وفى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه صورة حياته لما فعله رسول الله ﷺ فى هذه المواقف ، ومما جاء فى هذا الحديث قوله : « فلم يزل واقفا (يعنى بعرفه) حتي غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتي غاب القرص ، وأردف

(١) روح المعانى للالوسي ط / إدارة الطباعة المنيرية ببيروت ـ لبنان الطبعة الثانية جـ ٢ ص ٨٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ط ص ٢٤٢

أسامة خلفه ، ورفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحلة ، ويقول بيده اليمنى « أيها الناس : السكينة . السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده. فلم يزل واقفا حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس (١) .

وفى موقف عرفة من الزوال إلى مغيب الشمس ، وفى موقف المشعر الحرام إلى إسفارها دروس وعظات وعبر : فالموقف الأول دلالة على إنقضاء الدنيا ونقصانها وزوالها ، والثاني : « دال بفجره وشمسه على البعث لمجازاة الخلائق بأعمالها » وموقف عرفات في الحل ، وموقف المشعر الحرام فى الحرم « وفى جمع الموقفين فى الحل والحرم فى معلم الحج الذى هو آية الحشر إيذان وبشرى .

بأن أهل الموقف صنفان : صنف يقفون فى موطن روع ومخافة وقوفاً طويلا ، اعتباراً بوقوف الواقفين بعرفة من حين زوال الشمس إلى غروبها ست ساعات ، وصنف حظهم من الوقوف قرار فى أمنة ظل العرش الذى هو حرم يوم القيامة وكعبته ، فتشعر خفة الوقوف بالمشعر الحرام أن أمد طول ذلك اليوم يمر على المستظلين بظل العرش فيه كأيسر مدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : بمقدار صلاة مكتوبة ، فكان فى ذلك فضل ما بين موقف الحرم على موقف الحل (٢) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ ، ١٤٨٠ م ط الأولى ١٣٩١هـ ١٩٧١ بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند جـ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

ولما أمر بذكره عند المشعر الحرام أراد أن يوضح لنا الصورة التى نذكره عليها فقال : « واذكروه كما هداكم » أى بالطريقة التي أرشدكم إليها وعلمكم إياها : طريقة الإتباع لا الابتداع ، طريقة الالتزام بالهدى النبوى دون الخروج إلى ما سواها فتلك هي الطريقة المثلى والغاية القصوى ، من تركها ضل وهلك ، ومن ترك ما عليه رسول الله ﷺ واخترع لنفسه ألواناً من العبادات لم يأذن بها الله ولا الرسول فقد خسر خسراناً مبيناً ، وعاد إلى الضلال بعد الهدى ، وإلى الظلام بعد النور ، ولذلك يقول سبحانه : « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » أى من قبل هذا الهدى ، أو من قبل هذا الرسول وما جاء به من الهداية الربانية .

ولعل فى قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

ما يؤيد ما نقول : فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفه وكانوا يسمون « الحمس » (أى المتشددون فى الدين) . وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يفيض منها فذلك قوله سبحانه : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . فهو خطاب للناس عامة كما هو أمر لقريش أن يفيضوا من عرفات لا من المزدلفة كما كان عليه الناس قديما وحديثاً .

وفى هذا الأمر تعريض بمن دفعهم الكبر والتعالى إلى تغيير ما شرع الله لابراهيم عليه السلام ، وقد رأيت أنهم اختاروا لأنفسهم مكاناً يفيضون منه غير ما كان عليه ابراهيم الخليل ، وكانوا يقولون : نحن أهل الله فى بلدته وقطان بيته (أى ساكنوه) فلا يقفون بغير الحرم أما غيرهم فيقفون بعرفات ، ولهذا جاء الأمر بطلب المغفرة من الله ذى الجلال والإكرام بعد الأمر بالإفاضة من حيث أفاض الناس ، قال سبحانه : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

استغفروه لما كان منكم أيام جاهليتكم من بعد عن هدى الله ، واستغفروه لما بقى فى أنفسكم من عادات الجاهلية وأوضاعها ومفاسدها ، واستغفروه لكل

ذنب وكل تقصير . إن الله غفور رحيم ، فهو دائما يستر العيوب ويغفر الذنوب. وهو يرحم المستغفرين والتائبين فسبحانه من إله غفور رحيم .

٨ — أيام منى : ختام مناسك الحج . .

قال تعالى : « فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ، واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تحشرون » .

بهذا البيان الواضح يرشد الله المؤمنين إلى طريقة ، ويبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من تفاخر بالأحساب والأنساب ويظهر ما كانوا عليه من تحاسد وتباغض ، فقد ورد أنهم كانوا إذا فرغوا من حجهم وجاءوا إلى منى جعلوها ميدانا للتفاخر بالآباء والأجداد ، يقول الواحد منهم كان أبى يقرى الضيف ويحمل السيف ويتحمل الديات ، ويقول الآخر :كان أبى وجدى كذاوكذا يعدون مناقب آبائهم ويتناشدون فى ذلك الأشعار ويتبارون فى هذا الميدان بالكلام المنظوم والمنثور تفاخراً وسمعة ورياء ، فلما جاء الاسلام قضى على تلك العادات الوضيعة وجعل أيام منى أيام حب وتعارف وتزاور وذكر لله ، والاسلام بذلك غرس مكان العداوة حباً ، وأبدل التفاخر تواضعاً والتظاهر والرياء إخلاصا وذكر الآباء ذكراً لله وحده قال تعالى : « فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباؤكم أو أشد ذكراً »

أى فاذا انتهيتم من رمى جمرة العقبة ونحرتم وحلقتم وتحللتم وطفتم طواف الافاضة وعدتم إلى منى فانتهزوا تلك اللحظات فى أيام التشريق واجعلوها لحظات عبودية لله وطاعة له وذكر لايفتر ، فذكر الله يشرح الصدور ، ويطمئن

القلوب ، قال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١) .

وإذا كان الذاكرون لآبائهم تدفعهم حمية الجاهلية إلى المباهاة والسمعه فلا تفــتر ألسنتهم عن ذكر آبائهم ، وإذا كانت أوداجهم قد انتفخت بعصبية الجاهلية ، فليعلموا أن هذا كله قد انتهى زمانه وفات أوانه ، وأن الإيمان المستقر فى القلوب هو الدافع الحقيقى الذى يدفعهم إلى مداومة ذكر الله ذكراً تتجاوب معه القلوب ، وتتطامن معه الأرواح ، ويختلج به الشعور لا مجرد كلمات تقال باللسان وعبارات تتردد على الآذان ليس لها من طعم أو روح .

وإذا كان قوله تعالى : « كذكركم آباءكم أو أشـد ذكراً » قد لفت أنظارهم إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية وما أصبحوا فيه من نعمة الإســلام فهو أيضاً يدعوهم إلى ذكر ربهم ذكراً دائما لا ينقطع لأن ربهم هو ولى كل نعمة وصاحب كل فضل .

وبعد أن أمر بالذكر أوضح حال الذاكرين وهم فريقان : فريق ولى وجهته شطر دنياه ولا يذكر شيئاً آخر من أمر أخراه . وفريق ولى وجهته نحو مولاه ولم ينسي أن يطلب من ربه ما يعينه فى دنياه على أمر أخراه . . هذا هو ما نجده فى قوله تعالى : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

وهؤلاء الذين لا يعرفون من الحياة سوى دنياهم ويقولون ربنا آتنا فى الدنيا ما نبتغى ، وحقق لنا ما نأمل يأخذون نصيبهم من الدنيا ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب ، يقول ابن عباس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم أجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ،

---

(١) سورة الرعد ٢٨/١٣

لايذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله في الآخرة من خلاق »(١).

أما الذين جمعوا الخير من أطرافه وحازوا الفضل من كل جوانبه فهم الذين يدعون ربهم بهذا الدعاء الجامع : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار » . فحسنة تشمل كل خير دنيوي : من مال وجاه وعز وولد وصحة وهدوء واستقرار وسعادة وسرور ، وحسنة الاخرة : شاملة لكل خير أخروى من الأمن من عذاب القبر ومن هول البعث وهول المحشر والفزع الأكبر والأمن من عذاب الله وغضبه وناره ، ومن حسنة الاخرة : دخول الجنة والفوز بالنعيم المقيم والخير العميم ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، وقد طلب المؤمنون ذلك كله ، وطلبوا الوقايه من عذاب النار ، وهو من حسنات الآخرة ، لأهمية هذا المطلب ، فهو يعنى تيسير الأسباب الموصلة إليه من التوفيق فى الدنيا للابتعاد عن محارم الله والهداية لعمل الخير ، كما يعني أيضاً : تيسير الحساب والنجاة من الهول ودخول الجنة ، وغير ذلك مما يهدف إليه طلب المؤمنين من ربهم أن يقيهم عذاب النار ، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من هذا الدعاء : روى الإمام أحمد أن قتادة سأل أنس بن مالك : أى دعوة كان أكثر مايدعوها النبي ﷺ ؟ قال : يقول : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

والذين يدعون ربهم بهذا الدعاء هم الذين أدركوا الغاية من دنياهم فجعلوها وسيلة للسعادة في أخراهم ، وهم بذلك بلغوا المنزلة العالية والدرجة الرفيعة ، لذلك أشار إليهم ربنا بقوله : أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب» وما كسبوا هو الإخلاص والعبودية لله وحده والعمل الدءوب فى خدمة مولاهم ولهم على هذا العمل الجزاء الأوفر والنصيب الأوفى .

قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٣ .

جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا »(١) .

وقال : من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب »(٢) .

وكم يحتاج العبد إلى مثقال ذرة من الخير يقدمها بين يدى ربه في يوم الحساب ، ولذلك كان ختام الآية ، « والله سريع الحساب » فلا يشغله شأن عن شأن ، لا تلهيه كثرة الخلائق . فما أسرع حسابه لخلقه ، وما أشد حسرة الكافرين ، وما أعظم فرحة المؤمنين في هذا اليوم الرهيب .

وتأكيد للمداومة على ذكر الله ، وبيانا لمدة الإقامة في منى قال تعالى : وأذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى وأتقوا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون » .

فهذا أمر للحجاج في منى ، ويدخل معهم في هذا الأمر جميع المؤمنين كما هو رأى جمهور العلماء ، فكأن الله أمر المؤمنين عامة والحجاج خاصة أن يذكروا الله في إيام معدودات ، وهذه الأيام هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة ، فيها يرمي الحجاج الجمار مباينة وإصرار على رفض طريق الشيطان وإختياراً لطريق الرحمن(٣) .

وذكر الله في هذه الأيام الثلاثة بالتكبير عقب الصلوات المفروضة وعند رمى الجمرات وعند الذبح ، وذكر الله بقراءة القرآن والاستغفار وسائر ماتعرفه من ألوان الذكر فكله مستحب في هذه اللحظات المباركات فلاتكن من الغافلين .

وأنت في منى بالخيار : إن رحلت إلى مكة بعد رمي اليوم الثاني فلا إثم عليك وإن بقيت إلى آذان المغرب عند الشافية أو آذان الفجر عند الحنفية

---

(١) سورة الإسراء ١٧/١٨ ، ١٩

(٢) سورة الشورى ٤٢ ٢٠

(٣) راجع آراء العلماء في الأيام المعلومات في الفصل الثالث من الباب الثالث عند قوله تعالى ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام .

وجب عليك أن تبقى فى منى لليوم الثالث لرمى الجمار ، ولا إثم عليك فى هذا أيضاً ، والأمران بذلك متساويان ولا حرج على من إختار أحدهما . مادام كل منهما قد اتقى الله وعظم شعائره . .

وختاماً لهذا التشريع المحكم وتلك المعايير الالهية الثابتة بأمر الله بالتقوى ويذكر بيوم الحشر بعد أن إقتربت لحظات الوداع وحان وقت إنصراف الحجيج إلى ديارهم ، فيقول سبحانه :واتقوا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون.

إنهم الآن منصرفون من منى ليودعوا بيت ربهم فعليهم أن يتقوا الله فيما يذرون وما يأخذون ، عليهم أن يجعلوا التقوى شعار حياتهم وأن يراقبوا ربهم فى كل قول وعمل ، فهذا رأس مال الصالحين فى يوم لا ينفع العبد فيه إلا هذا المال المدخر ، وعليهم أن يذكروا دائما وأن يعلمـــوا دائما أنهم محشورون إلى الله وحده : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »(١) .

وبعد :

فهذه آيات الحج فى القرآن الكريم عشت وقتاً مباركا مع مافيها من أنوار وما توحي به من أسرار ، وإن بقيت تلك الايات عامرة بالمعانى الربانيه والأسرار الإلهية ، فلعلك ياأخى — إذا قرأتها بقلب مفعم بالإيمان ، مستنير بنور الله أن ترى جوانب أخرى من هذا النور الإلهى .

أسأل ربى أن يبارك لنا فى هذا القرآن العظيم وأن ينفعنا بما فيه من الذكر الحكيم ، وأن يجعلنا ممن أهتدوا بهديه وإستضاءوا بنوره،فان ربى على مايشاء قدير وهو بالاجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين ؟

عبد الفتاح عاشور

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/ ٤٧

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٧٦	١	وكل عالمهم	فهو كل عالمهم
٧٦	١٨	نجيبه	نجيبة
٧٧	١٢	تنكر	تنحر
٧٨	١٢	أوراق	أدران
٧٩	١٥	صور	صوى
٨٠	٥	فيقولون	فسيقولون
٨٢	١	أننا	ائتنا
٨٢	١٩	فكان	فكأن
٨٥	١١	وعلاقة	وعلامة
٨٩	٨	قيل	وقيل
٨٩	٢٠	لتطيب	تطييب
٩٧	١٧	يجرأة	تجرؤة
٩٧	٢٣	أسعو	اسعوا
٩٨	١٦	مطهراً	متطهراً
١٠٠	٨	فى أى	فى أمر
١٠١	٣	يثيب	شاكر يثيت
١١١	١٨	الحرام	الحرم
١٢٥	٧	صنيع	صيغ
١٢٨	٤	عامل	عاقل
١٣٤	١٨	حواجر	حواجز
١٣٤	٢٢	قلادة	تقلد قلادة
١٣٥	١	إذا	وإذا
١٣٥	٣	بالجعل	الجعل
١٤٢	١٥	وزين	رزين
١٤٣	٣	لمن	من
١٤٣	٩	اعتضاءها	اعتضادها
١٤٣	١٦	الحاج	الحجاج
١٤٤	١	عن	من

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٩	١	رأو	رأوا
١٤٩	١٧	والجاهلى	والجاهل
١٥١	٢٢	المذرى	الخدرى
١٥٤	٦	فسون	فسوق
١٥٤	٢٢	لقوله	فى قوله
١٥٥	١٣	مقومات	مقدمات
١٥٦	١٨	خانة	خائنة
١٥٦	١٩	لا يغرب عفه	لا يعزب عنه
١٥٨	١٨	رغية	رغبة
١٦٠	٢٥	٩٧٧ هـ / ط ج ١	١٩٧٧ هـ / ج ١
١٦١	١	والسترى	والسدي
١٦١	١٨	حياته	حية
١٦١	٢٤	ابن كثير ط	تفسير ابن كثير ج ١
١٦٤	٢٠	آبائكم	آباءكم
١٦٥	٤	انتفحت	انتفخت
١٦٥	١٥	ولم ينسي	ولم ينس
١٦٦	٥	لحسنة تشمل	لحسنة الدنيا تشمل